

دليل المناضل في النظرية



لجنة التحقيق الجماهيري
في الحزب الشيوعي الكويتي

شروح في المادية التاريخية



بميسل المناضل

في النظرية

— ١ —

لجنة التحقيق الجماهيري
في الحزب الشيوعي الكويزي

شروح في المادية التاريخية

حقوق الطبع محفوظة
دار ابن خلدون للطباعة والنشر
ص ٠ ب : ١١٩٣٠٨
هاتف : ٢٩٦١٠٣ - بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
آذار ١٩٧٥

كان أول كراس نشرناه في سلسلة « دليل المناضل »
نصا تعليميا عن المركزية الديمقراطية اللينينية من اعداد
لجنة التثقيف الجماهيري في الحزب الشيوعي الكوبي .

هذا الكراس الجديد من سلسلتنا بعنوان « شروح في
المادية التاريخية » يحتوي على شروح لظروف كتابة
« البيان الشيوعي » ولموضاعاته الرئيسية مع استشهادات
مستفيضة من عالمنا المعاصر وقد نشر معظمه على
حلقات في مجلة « الحرية » خلال عام ١٩٧٤ و ١٩٧٥ .

« الناشر »

١ - أوروبا عند كتابة « البيان الشيوعي »

لحظة صدور البيان الشيوعي عام ١٨٤٨ كان الوضع السياسي الأوروبي مطبوعا بخصائص عديدة . كانت البورجوازية قد اكدت سلطتها في بعض البلدان وكانت تبحث عن نقاط ارتكاز حيث لم تكن قد هيمنت بعد ، وكانت مضطرة منذ ذلك الوقت لمواجهة اولى مطالب البروليتاريا التي شكلت حتى ذلك الحين جيشها الصدامي ضد ممثلي النظام الاقطاعي .

في انكلترا ، استطاعت البورجوازية ، اثناء العام ١٨٣٢ وبفضل دعم البروليتاريا ، ان تفرض الاصلاح الانتخابي الذي سمح لها لاحقا بالوصول الى السلطة . وفي فرنسا ، كان دعم العمال والشرائح الدنيا من الشعب في اساس سقوط شارل العاشر . ومنذ ذلك الوقت حتى ١٨٤٨ حكم « الملك البورجوازي » لويس - فيليب دورليان

لصالح اصحاب المصارف وممثلي البيوتات المالية الكبرى .
وكانت البورجوازياتان الالمانية والايطالية تسعيان في
بلديهما لتحقيق الوحدة القومية من أجل فرض الرقابة
الاقتصادية والهيمنة السياسية . وفي مكان آخر ، كانت
بعض الشعوب ، مثل شعب بولونيا ، تحارب النظام
القيصري في سبيل التحرر الوطني .

وكانت القوى الاقطاعية المتقهقرة تقاوم الرأسمالية
الناهضة ، بالرغم من كل شيء .

فما هي العوامل التي كانت في اساس هذا التقدم
السريع للبورجوازية طيلة النصف الاول من القرن التاسع
عشر ؟

تعين الثورة البورجوازية الفرنسية ١٧٨٩ بداية
مرحلة من الانتصارات ومن توطيد الرأسمالية في البلدان
الاكثر تقدما في اوروبا . سبقت انكلترا ، مهد الثورة
الصناعية كل جيرانها ، وابتدأت منذ منتصف القرن الثامن
عشر بادخال الآلة الى المعامل . غير ان وسيلة الانتاج هذه
لم تأخذ اهميتها الحقيقية سوى مع بداية القرن التاسع
عشر . ونتج عنها ازدهار في الصناعة والتجارة الى حد
فرض عليهما مد نفوذهما الى ما وراء الحدود ، ففرضا
نفسيهما لا في اوروبا فحسب بل في كافة البلدان الخاضعة
للسيطرة الاستعمارية الانكليزية ايضا . واصبحت بريطانيا
مركز التجارة العالمية ، واصبحت تزود الاسواق البعيدة

بالسلع المصنعة ٠٠ ووصلت صادراتها الى نسب عملاقة فعلا وذلك بانتقالها من ٢٤٩٠٠٠ر٠٠٠ جنيه استرليني عام ١٨٠١ الى ١٧٥٤٠٠٠ر٠٠٠ جنيه استرليني عام ١٨٥٠ ، أي ما يوازي زيادة قدرها ٦٠٠ بالمئة ٠

في فرنسا ، كبحت العوائق التي وضعتها الاقطاعية جماح الثورة الصناعية : وجاءت الفترة الثورية ١٧٨٩ والنابوليونية لتضع حدا لهذا الواقع ولتمنع أي اعتراض لادخال التقنيات الجديدة الى المعامل ٠ وآلات البخار مثال ملموس على هذا التقدم اذ انها وصلت عام ١٨٢٠ الى ٦٠٠ آلة ٠ في حين كانت ١٥ آلة فقط سنة ١٨١٥ ٠ ويتجلى هذا التقدم بوضوح اكبر انطلاقا من ١٨٢٠ ٠ ففي عام ١٨٢٤ كانت فرنسا تعد ٥٠٠٠ آلة حياكة وقد اصبح النسيج المجال الذي سجل الانطلاقة الالهة للصناعة المانيفكتورية ٠ اصبحت مدينة «ليون» اهم مركز لصناعة الحرير في العالم ٠ ومنذ ١٨٥٠ اصبح في فرنسا حوالي ٢٥٠٠ر٠٠٠ حلاله و ١١٦ر٠٠٠ آلة حياكة ولم يكن تطور الصناعة الثقيلة اقل اهمية ، عام ١٨١٠ كان استخراج الفحم الحجري يقدر بمليون طن فاصبح عام ١٨٥٠ مضاعفا خمس مرات ٠ ويمكن القول بشكل عام ان الصناعة الفرنسية تطورت تطورا كبيرا بين ١٨١٢ و ١٨٥٠ ، فارفعت قيمتها من مليارين الى ٤ مليارات فرنك ٠ وتميزت هذه النهضة أيضا ببناء سكك الحديد التي اصبحت في العام ١٨٥٠ ممتدة على شبكة تناهز الثلاثة آلاف كيلومتر ٠ وكذلك سجل

الانتاج الزراعي وتربية الماشية ، بعد تخلصهما من
الاقطاعية ، تقديما ملحوظا .

رغم كل هذا التقدم لم يكن بالإمكان مقارنة الانتاج
الفرنسي بالانتاج الانكليزي والصناعة الانكليزية ويسمح
عدد انوال الحياكة الآلية في البلدين باجراء مقارنة هامة ،
ففي حين كانت فرنسا تعد ٥٠٠٠ آلة عام ١٨٣٤ كانت
انكلترا تعد ١٠٠٠٠٠٠ . وتكفي هذه الارقام لتعطينا فكرة
عن السيطرة الانكليزية ذلك الوقت .

اما المانيا ، في منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت
متخلفة بشكل هائل على الصعيد الصناعي . ولم يكن
يوسعها مقارنة نموها بالنمو الفرنسي . لقد كانت بلدا
زراعي الى حد كبير . وكانت بعض المناطق ، مثل الضفة
الشمالية لنهر الراين قد عرفت نوعا من التطور من النمط
الرأسمالي وذلك تحت التأثير الفرنسي الذي خضعت لسه
اثناء الغزوات النابوليونية . وحوالي عام ١٨٥٠ كان نظام
الانتاج العائلي لا يزال سائدا والآلة بحكم الغائبة ، والتطور
البورجوازي مستحيلا نتيجة نقص المؤسسات المالية
المناسبة . وتعود جذور هذه الحالة الى العوائق التي
وضعتها الاقطاعية ، مثل « النقابات المهنية المغفلة » التي
اختلفت ببطء ، واللامركزية السياسية التي ولدت نزاعات
عديدة بين ٣٩ دولة مختلفة ، وغياب سوق وطنية يمكنها ان
تؤدي الى طلب على سلع مصنعة في المانيا ، والنقص في

المواصلات ، واستخدام اليد العاملة بشكل اساسي في الحقول والغابات ، والآثار المدمرة التي خلفتها الحروب النابوليونية التي خربت هذه البلاد . كل هذه الاسباب تفسر تخلف المانيا في هذه الفترة المطبوعة بتحويلات اكيدة .

يسمح لنا هذا العرض لاوضاع ثلاثة من البلدان الاوروبية الهامة بملاحظة التقدم الذي سببته الرأسمالية ونهضة الثورة الصناعية في اوربا . وقد شجعت هذه التحويلات في مجال الانتاج على التوسع الاستعماري . ويكفي الاستشهاد بالثال الانكليزي في هذا الصدد .

فبين عامي ١٨٢٦ و ١٨٥٩ احتلت انكلترا سيام ، والسند ، والبنجاب ، والنيپور ، وسنغافورة ، وعدن ، وبرمانيا ، وباشرت « حرب الافيون » بهدف محدد هو الاستيلاء الكامل على الصين .

وهكذا فالبورجوازية ، نتيجة التقنيات الجديدة الموجودة في خدمتها وحاجتها لتوسيع اسواقها ، قسمت الكرة الارضية الى قسمين محددين اكثر فاكثر : فهناك بالنسبة اليها البلدان المستعمرة (بكسر الميم) من جهة والبلدان المستعمرة (بفتح الميم) .

غير ان المجتمع البورجوازي الشاب كان خاضعا من وقت لآخر، وبموازاة الانتصارات الاقتصادية التي يسجلها، لهزات كاشفة عن التناقضات الملازمة للنمط الاستغلالي الجديد .

حدثت الهزة الاولى عام ١٨٢٥ ، وتلتها اخريات بشكل دوري في الاعوام ١٨٢٧ ، ١٨٤٧ ، ١٨٥٧ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٢ ، الى آخره . وكانت كل واحدة من هذه الازمات تلتهم الارباح الهائلة التي انتجها المجتمع. وتخفف الى حد كبير من وتيرة الانتاج . في انكلترا مثلاً ، واثناء ازمة ١٨٢٥ ، اضطر حوالي ٨٠ مصرفاً لاعلان الافلاس بعد سقوط الاسهم المسجلة في البورصة وارتفعت الخسائر الى ١٤ مليون ليرة استرلينية ، وفي عام ١٨٢٦ سجلت صادرات القطن انخفاضا قدره ٢٢ بالمئة في حين سجلت الواردات القطنية انخفاضا قدره ٢٦ بالمئة ، وانخفضت صادرات الحرير بنسبة ١٩ بالمئة . بالاضافة الى ذلك سببت الازمة شللاً كاملاً للحياة الاقتصادية ترجم نفسه بالنسبة للعمال على شكل جوع وبؤس .

ولكن ، كما يقول البيسان الشسيوعي ، لم تخلق البورجوازية الاسلحة التي سترتد في النهاية الى نحرها ، بل ولدت ايضاً الرجال الذين يستخدمون هذه الاسلحة . بموازاة تطور الرأسمالية وتؤكد سيطرة البورجوازية كطليقة . كانت البروليتاريا تشهد ازدياد حجمها العددي . وكان الحرفيون والعمال الريفيون المتدهورون يجيشون باستمرار لزيادة صفوف الاجراء . ولم يكن بوسع البورجوازية ، المحتاجة حاجة شديدة الى اليد العاملة ، استثناء النساء والاطفال وذلك بعد ان اصبح الانسان ، مع

مكنة الانتاج ، امتدادا للآلة فحسب •

بعد ان انتزعت من العمال وسائل الانتاج ، وانصرفت
البورجوازية الناشئة لارواء ظمئها الى الربح باخضاع
العمال لشروط عمل غير انسانية ، فارتفع عدد ساعات
العمل يوميا الى ١٥ او ١٦ ساعة • واستمرت الاجور
الفعلية في انخفاض طيلة النصف الاول من القرن التاسع
عشر • فهبطت في انكلترا مثالا حوالى ١٠ بالمئة ، وفي
المانيا كان الاجر الفعلي عام ١٨٥٠ يمثل ٨٨ بالمئة منه عام
١٨٠٠ • ويقدم النساء والاطفال مشهدا اكثر دراماتيكية
من هذا فقد كانوا ، نتيجة اخضاعهم لهذا النوع من نظام
العمل ، مرضى باستمرار ، وكانوا يشيخون قبل الاوان ،
ويموتون نتيجة حوادث العمل • وكان يترافق مع ارتفاع
انتاجية الرأسمالية خاصة في البلدان القليلة المكنة ، كما
في المانيا تلك الايام ، ازدياد في حوادث العمل •

لقد أدى هذا الوضع الى ايقاظ الوعي العمالي •
واخذ العامل يفهم مدى الاستغلال الذي يخضع له ويعي
ايضا مدى قوته •

٢ - النضالات الاولى للبروليتاريا من الطوباوية الى الاشتراكية العلمية

كان رواد النضالات العمالية الاولى يرون في الآلات مصدر كل مصائبهم . فهذه هي مثلاً حالة حركة « اللوديين » التي كانت تقترح تدمير « الوحوش الحديدية » قبل ان تتكاثر .

وقد انطلقت هذه الحركة خاصة في انكلترا بدءاً من السنوات الاخيرة للقرن الثامن عشر ، ثم امتدت الى كافة ارجاء اوروبا . غير ان العمال سرعان ما ادركوا انه يجب توجيه الحقد ضد النظام الاجتماعي الذي يستغلهم وليس ضد الآلات .

وقد ساعد على تعميم هذا الوعي انتشار افكار الاشتراكية الطوباوية التي توالى على زعامتها روبرت اوين ، وشارل فورييه ، وكلود هنري سان سيمون . لقد

فهم الطبواويون انه لا يمكن حل مشاكل المجتمع بواسطة العودة الى الماضي كما كان يعتقد البعض .

انتقد الطبواويون بشدة النظام البورجوازي وافهموا البروليتاريا ان الآلات ليست العدو بل العدو هو الطبقة الاجتماعية التي تملك الآلات .

كانوا يعرفون ان النظام الرأسمالي لا يتناسب مع مصالح اوسع الفئات الشعبية غير انهم لم يكونوا يجدون في هذه الفئات سوى جمهور جاهل وخانع . ولذلك انصرفوا بدل تنظيم العمال للنضال ، الى اقناع الطبقات الحاكمة بصحة المبادئ الاشتراكية رغبة منهم في اقناع هذه الطبقات بتغيير النظام الاجتماعي .

ورغم ان الصراع الطبقي كان يتصاعد في العقود الاولى من القرن التاسع عشر ، فان البورجوازية ارغمت البروليتاريا اكثر من مرة على خدمة مصالحها من اجل ارواء غشها الى السلطة ويجب البحث عن أسباب ذلك في عدم نخسج البروليتاريا من جهة ، وفي ان البورجوازية كانت لا تزال تلعب دورا تقدما بازالة آخر الحواجز القطاعية من جهة ثانية . في هذه المصادمات كانت البروليتاريا تلعب دور القوة الصدمية التي توصل البورجوازية الى اهدافها ، ولكن ما ان تصل هذه الى اهدافها حتى تترك العمال يواجهون اقدارهم وتتجاهل أي مطلب عمالي .

نجد الدليل على ذلك في الحركة التي قامت لصالح

الاستفتاء العام في أنكلترا بدءاً من ١٨٢٥ ، والتي تحالف فيها العمال مع البورجوازية . ومع سقوط آخر ملك من أسرة البوربون ، شارل العاشر ، سنة ١٨٣٠ في فرنسا ، أصبحت المعركة في بريطانيا أكثر حدة . وارغم « حزب المحافظين » الذي كان في السلطة على تقديم مشروع قانون جديد . وكانت هذه طريقة لارضاء البورجوازية بحرمان العمال من كل الحقوق السياسية . يبرهن هذا المثال على كيفية استخدام البورجوازية للبروليتاريا . وقد تكرر أكثر من مرة في إطار السياسة الأوروبية . عند ذلك فهمت البروليتاريا انه من أجل الوصول الى مطالبها واهدافها يجب عليها الوقوف ضد البورجوازية .

لقد أدى التذمر العام الذي سببته خيانة ١٨٣٢ في أنكلترا الى حركة جماهيرية واسعة متمحورة حول « عصبة العمال » التي تأسست في لندن عام ١٨٣٦ . وقد طرحت العصبة برنامجاً ديمقراطياً وراديكالياً أسمته « ميثاق الشعب » .

جرى تأييد هذا الميثاق في جمعية هامة ومؤثرة ، ووقع عليه أكثر من مليون شخص ، وقدم الى البرلمان في ربيع ١٨٣٨ ، غير ان البرلمان رفضه واتخذ اجراءات قمعية ضد الميثاقيين « الشارتريين » .

لم يرض هؤلاء بالهزيمة واسسوا في ١٨٤٠ « المنظمة الوطنية للميثاقيين » التي كانت نسوة حزب سياسي

بروليتاري . وفي عام ١٨٤٢ قدم عريضة جديدة للبرلمان موقعة هذه المرة من قبل ثلاثة ملايين مواطن ، غير ان هذا لم يحل دون ان يصيبها ما أصاب سابقتها . عند ذلك نظم « الليثاقيون » اضرابا غير انه فشـل وسبب في اضعاف المنظمة .

وفي عام ١٨٤٨ اعدوا الكرة مع اكثر من خمسة ملايين توقيع ، غير ان القادة لم يحسنوا مواجهة مناورات البورجوازية ، فسقطوا مرة اخرى .

في فرنسا ، كان للنضالات العمالية طابع آخر فالتقنيات الحرفية كانت لا تزال تسيطر في غالبية المراكز الصناعية . ففي ليون مثلا ، عاصمة الحرير ، يعمل حوالي ٣٠ ألف عامل بين ١٦ و ١٨ ساعة يوميا وفي ظروف غير انسانية اطلاقا .

طالب العمال عام ١٨٣١ بزيادة في الاجور ، واسام رفض ارباب العمل ، اعلنوا الاضراب ونظموا تظاهرة تحت شعار « نعيش عاملين او نموت مناضلين » . وبعد ثلاثة ايام تمكن العمال من السيطرة على المدينة . غير انهم ، للأسف لم يكونوا منظمين ومستعدين لمواجهة التخريب الذي قام به صغار ارباب العمل . لذلك انتهوا الى الفشل بعد عشرة ايام وبعد ان ارسلت نجدات عسكرية مهمة من باريس .

عاد العمال في ليون الى النضال عام ١٨٣٤ انما
بشعارات سياسية اكثر جذرية هذه المرة . وفي حين كانوا
يبدون ثقتهم بالملك في المرة الاولى فانهم طالبوا بالجمهورية
هذه المرة . غير ان الحكومة كانت مستعدة واستطاعت قمع
العمال بعد اربعة ايام من المعارك الدموية .

كان لتمرّد عمال ليون مضاعفات ليس في فرنسا
فحسب ، بل في اوروبا كلها . ففي المانيا ، ورغم التخلف
السياسي للعمال ، لاقت هذه المظاهرات صدى طيبا نظرا
للحالة البائسة للطبقة العاملة الالمانية . ففي الواقع كانت
المضرائب الباهظة الموروثة من العهد الاقطاعي تضاف الى
الاستغلال الرأسمالي . كما كانت حياة عمال النسيج في
مقاطعة « سيليزيا » قاسية جدا . وفي عام ١٨٤٤ ، وبعد
ان تعب عمال هذه المنطقة من التجاوزات المرتكبة ضدهم
انتفضوا ضد الجيوش النظامية وكان سلاحهم القضبان ،
والحجارة ، والفؤوس غير ان العمال ، رغم ان التمرّد قد
سحق ، اصبحوا يمثلون قوة سياسية لا يمكن انكارها مثل
عمال ليون تماما .

أدت حركات التمرّد العمالية في كافة انحاء اوروبا
الى عودة عدد من المنظمات السرية الليبرالية والديمقراطية
والجمهورية الى الظهور .

وهكذا تأسس عام ١٨٣٤ في باريس على يد عدد من
المنفيين الالمان « عصبة المنفيين » ذات الاتجاه الديمقراطي -

الجمهوري . وفي عام ١٨٣٦ انشقت العناصر الأكثر جذرية في هذه المنظمة وهي عناصر ذات الغالبية البروليتارية لتؤسس جمعية سرية جديدة باسم « رابطة العداليين » .

وهذه الرابطة هي ، حسب قول انغلز : « الشكل الألماني للشيوعية العمالية الفرنسية المتجلية ان ذاك والمتحدرة من التقاليد البابوية » . كانت باريس ان ذاك المركز الثوري في اوروبا ولذلك لم تكن العضبة سوى « الفرع الألماني للجمعيات السرية الفرنسية وخاصة لجمعية « المواسم » التي يقودها بلانكي وباربيس » . وعندما نزل الفرنسيون الى الشارع في ١٢ ايار ١٨٣٩ بتحريض من بلانكي والقادة الثوريين الآخرين ، تضامن معهم اخوتهم الطبقيون اعضاء العصبة وتلقوا الهزيمة معهم .

عادت العصبة فتشكلت في انكلترا لتضم قسما من الاعضاء المطرودين من فرنسا ، ولتجد صدى لا بأس به في عدة بلدان اوروبية خاصة في سويسرا حيث خلقت تنظيما صلبا انما متأثرا الى هذا الحد او ذاك بافكار « ويلينغ » . وبانتقالها من باريس الى لندن ازدادت المنظمة قوة واكتسبت طابعا أمميا . غير انها لم تتوصل ، رغم كل شيء الى التخلص من جوهرها البورجوازي الصغير . فرغم ان الاعضاء ينتمون الى الطبقة العاملة ، خاصة الاعضاء الالمان ، فانهم كانوا اقرب باستمرار الى العقلية التعاونية .

وكانت هذه هي حالة كافة المنظمات العمالية ذاك العصر .
كانت الشيوعية التي يمثلها « ويلينغ » قد جرى
تجاوزها على يد « شيوعية ثانية » ، مختلفة جوهريا عن
الاولى « أرسى أسسها كل من ماركس وانغلز » .

منذ ١٨٤٣ دعي انغلز للدخول في العصبة الا انه
رفض . وفي ربيع ١٨٤٨ ، ذهب « مول » ، أحد قادة
العصبة ، للقاء ماركس في بروكسل وانغلز في باريس ونجح
في اقناعهما بالانضمام الى المنظمة .

وفي صيف عام ١٨٤٧ عقد في لندن أول مؤتمر
للرايطة ، وكان وولف يمثل بروكسل وانغلز باريس . قرر
المندوبون اعادة تنظيم العصبة ، كما تقرر ترك الاسماء
الكبيرة العائدة لزمن السرية ، كما تقرر اطلاق اسم
« عصبة الشيوعيين » على المنظمة .

انعقد المؤتمر الثاني في العام نفسه هي نهاية تشبين
الثاني وبداية كانون الاول ، وحضره ماركس ودافع مطولا
عن نظريته الجديدة . وفي نهاية المناقشات رفضت كافة
الاعتراضات وتوضحت الشكوك . وفي المؤتمر كلف ماركس
وانغلز بكتابة « البيان » فانصرفا الى كتابته مباشرة وذلك
قبل اسابيع من اندلاع ثورة ١٨٤٨ . وحين الانتهاء منه
ارسلاه الى لندن لنشره . ومنذ ذلك الوقت قام « البيان
الشيوعي » بدورة حول العالم وترجم الى كافة اللغات
تقريبا وخدم حتى ايامنا هذه كدليل للحركة العمالية .

٣ - « البيان الشيوعي » وصراع الطبقات

ان البيان الشيوعي الذي كتبه ماركس وانغلز هو اول برنامج للشيوعية العالمية ، وهو يعلن سمات الماركسية الثلاث ، الفلسفية ، والاقتصادية ، والاشتراكية العلمية .

وقد قال لينين بصدد البيان ، « أنه عمل يعرض بوضوح ودقة فائقين الفهم الجديد للعالم ، المادية المطبقة على الحياة الاجتماعية ، والجدل ، العلم الاكثر اتساعا وعمقا للتطور ، ونظرية صراع الطبقات ، والدور الثوري الذي تتميز به البروليتاريا خالقة المجتمع الجديد ، المجتمع الشيوعي . . »

برهن مؤسسا الاشتراكية العلمية ، بكشفهما عن تناقضات المجتمع الرأسمالي ، انه لا يمكن حصول مصالحة بين الطبقات المتناقضة وان الثورة وانتصار البروليتاريا حتمي . وعندما كان ماركس وانغلز يصيغان نظريتهما

الثورية الجديدة كانا يعرفسان انها ستكون رافعة تحويل العالم ودليلا لنضال الطبقة الطليعية ، البروليتاريا ، التي تحمل مهمة تاريخية هي تدمير الرأسمالية وبناء المجتمع الجديد .

أخذ تأسيس حزب يكون الفصيل الطليعي للطبقة العاملة ، دورا كبيرا في اطار نشاطاتها الثورية التي كرسا لها حياتهما . وكانت اول خطوة على هذه الطريق هي تأسيس « عصابة الشيوعيين » . لم يكن من السهل اطلاقا المتوصل الى هذا . وذلك ان ماركس وانغلز بعد سنوات طويلة من النقاشات النظرية والسياسية والممارسات العملية في بلجيكا وانكلترا والمانيا تمكنا من النضال بفعالية ضد الافكار المتسربة الى الافكار الطوباوية غير العلمية السابقة .

انعقد مؤتمر « عصابة العادلين » في لندن في حزيران ١٨٤٧ . وتركزت النقاشات بصورة اساسية حول مشروع تنظيمات جديدة . وبمبادرة من انغلز وافقت الجمعية على البند الاول من المشاريع التنظيمية ، وهو ينص على ان « هدف العصابة هو قلب البورجوازية واقامة نظام البروليتاريا شيئا تخسره في هذه التحولات الجذرية سوى على الصراعات الطبقة وبناء مجتمع جديد بدون طبقات او ملكية فردية » . كما غير المؤتمر اسمه ، بناء على اقتراح من ماركس وانغلز الى « عصابة الشيوعيين » .

يمكننا ان نؤكد ان عصابة الشيوعيين تستجيب من
• ث ايديولوجيتها وبرنامجها وتنظيمها لمبادئ الشيوعية
العلمية • وباسم هذه المنظمة كتب ماركس وانغلز « البيان
الشيوعي » • كان هذا التنظيم الثوري الجديد ، من حيث
بنيته التنظيمية ، وخضوعه للجنة المركزية والمؤتمر كهيئات
قيادية مؤسسة على المساواة ، ارقى مستوى من المنظمات
القطاعية التي كانت تعرقل تطور الحركة العمالية •

برهنت الثورة التي قامت عام ١٨٤٨ في فرنسا
وغيرها من بلدان اوروبا ان الطبقة العاملة تمتلك قوى
كافية لمواجهة البورجوازية • وبات واضحا ان نجاح
البروليتاريا مرتبط بدرجة تنظيمها •

بعد سنوات من ذلك ، وفي ايلول ١٨٦٤ ، اسس
ماركس وانغلز « الرابطة الاممية البروليتارية » (الاممية
الاولى) التي ضمت مختلف تيارات الحركة العمالية في
ذلك العصر • مثلت الاممية المؤسسة على النظرية الماركسية
انتقالا الى مستوى اعلى من الصراع الطبقي • فقد شجعت
الاممية البروليتارية ، وحاربت الحكومات الرجعية في
اوروبا واميركا • ووقفت في جميع مؤتمراتها ، كما في
حالة كتابة « البيان » ووضع الانظمة الداخلية ، ضد
التيارات غير العلمية مثل الفوضوية واللاسالية
والتريديونيونية • لقد رغب ماركس وانغلز في ان تتعرف
الطبقة العاملة على الكنز العلمي الذي تحتزنه النظرية

الثورية الجديدة ، وذلك من أجل ان تستخدمه في
النضال من أجل المجتمع الجديد . لقد انطلقا من مبدأ يقول
انه ما ان تمتلك الجماهير النظرية حتى تتحول هذه الأخيرة
الى قوة مادية رائعة .

بين ١٨٦٤ و ١٨٧٢ تمحور افضل ممثلي الحركة
العملية حول « الرابطة الاممية الاولى » وشعارها « يا
عمال جميع البلدان ، اتحدوا » .

عام ١٨٧١ انتفضت الطبقة العاملة الفرنسية بعد
الغزو البروسي وخيانة نابوليون الثالث والدموي « تيير » ،
ممثلا ما يسمى حكومة « الدفاع الوطني » التي لم تتأخر في
الخضوع للغزاة الاجانب .

ويوم ١٨ آذار - مارس وبعد معارك عنيفة في شوارع
العاصمة ، اعلنت «عامية باريس» (الكومونة) . انه اول
نظام بروليتاري خالص ، اول حكومة للفقراء اتخذت خلال
٧٢ يوما تدابير في مصلحة الشعب بقدر ما اتخذت كل
الحكومات المتعاقبة على الحكم قبلها .

كانت « العامية » بالنسبة للبروليتاريا درسا لا سابق
له علمها ، كما كان قد تنبأ ماركس ، انه يجب تفكيك جهاز
الدولة البورجوازي من أجل قيادة المجتمع .

لم تنتصر « عامية باريس » ، لان الظروف التاريخية ،
بغض النظر عن الاخطاء التي ارتكبت ، لم تكن تسمح

بنجاح مشروع يمثل هذه الأهمية • غير أن مثال رجال
العامية ، « الذين اقتحموا السماء » كما يقول ماركس يشكل
انجازا تاريخيا في نضال العمال والمفهورين من أجل
التخلص من نير الرأسمال •

بعد هزيمة العامية ، اصطدمت الحركة العمالية التي
اضعفتها الحكومات البورجوازية ، بصعوبات كبيرة • غير
أن ذلك لم يحل بين مؤسسي الماركسية وبين استمرار
عملهما على المستوي النظري ، ومن أجل بناء احزاب عمالية
ثورية وقيادتها نحو المرحلة الجديدة من النضال •

وشكل موت ماركس ١٨٨٣ ، عبقرى الفكر والعمل
الثورى ، خسارة كبيرة للحركة العمالية • غير أن العمل
النظري والتنظيمى استمر من بعده على يد فريدريك انغلز
ومجموعة من معاونى المخلصين • وحاول رفيق ماركس
الحميم ، قبل كل شيء ، الحفاظ على النقابة العلمية
لايديولوجية البروليتاريا المهددة بتكتيكات جديدة وضعتها
البورجوازية والتيارات التحريفية والفوضوية التي ظهرت
في الحركة العمالية • و « البيان الشيوعى » ، رغم التحولات
الاجتماعية التي حدثت ، لم يفقد شيئا من قيمته كدليل يقود
البروليتاريا الى تحريرها النهائى •

وجاء موت فريدريك انغلز ، المساعد العبقري لماركس ،
في الوقت الذى كانت فيه الرأسمالية تدخل مرحلة

الامبريالية التي حددها لينين «بمرحلة الامبريالية والثورات الاشتراكية» .

وعندما سمحت الظروف التاريخية بتجسيد اهداف « البيان الشيوعي » قام لينين قائد البروليتاريا الكبير ومنظمها بتطبيق وتطوير واغناء النظرية الماركسية اخذا بعين الاعتبار الظروف الجديدة .

لحظة الثورات الروسية عام ١٩٠٥ وفي شباط و اكتوبر ١٩١٧ . عرف الحزب الجديد الذي خلقه لينين كيف يستفيد من تجربة ثورات ١٨٤٨ في اوروبا ، والاممية الاولى ، وعامية باريس . لم يصل الصراع الطبقي في السابق ، في مختلف اشكاله وخاصة على المستوى السياسي والايديولوجي ، الى مثل هذا المستوى المرتفع . فقد انكشفت كل تناقضات البورجوازية القيصريّة . واصبحت السلطة الجديدة في ايدي العمال والفلاحين على انقاض النظام القديم الذي كنسته الثورة المنتصرة .

لقد هزت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى العالم الرأسمالي وافتتحت مرحلة جديدة في تاريخ الانسانية ، مرحلة الانهيار النهائي للرأسمالية والانتقال الى الاشتراكية . فلأول مرة في التاريخ تأكدت الافكار الاساسية للبيان الشيوعي بالممارسة .

اكثر من ١٢٠ سنة تفصلنا عن ظهور هذه الوثيقة التاريخية . وقد راكمت الطبقة العاملة منذ ذلك الوقت

مجموعة من التجارب الهامة • كما كان للتحويلات التي جرت في العالم نتائج تاريخية لا يمكن انكارها • فقد اجتاز مئات الملايين من البشر ، نهائيا مرحلة النظام الرأسمالي القائم على القهر والبطس • غير ان ملايين البشر لا زالت تعرف الجوع حتى الآن ، والبطس ، والخوف، في البلدان الخاضعة للرأسمالية •

ويمثل البيان الشيوعي بالنسبة لهؤلاء خاصة ، وبفضل تصوره الثوري لصراع الطبقات ، وثيقة تاريخية ذات قيمة فائقة اذا عرفت كيف تؤولها بعقلية خلاقة • يبقى البيان الشيوعي بالنسبة لثوريي أي بلد ، اشتراكي أم رأسمالي ، دليلا ثميننا من اجل العمل الثوري واداة فعالة للنضال الايديولوجي •

1

٤ - حول الدور التاريخي للطبقة العاملة

« ان الاساسي في عقيدة ماركس هو انها القت
الضوء على الدور التاريخي للبروليتاريا ، باعتبارها
بانية للمجتمع الاشتراكي » .

كشفت الرأسمالية ، منذ ظهورها ، عن طابعها
الاستغلالي . ولم تتأخر في زيادة بؤس العمال . وقد قاد
التطور الاجتماعي الذي فرضه تطور الرأسمالية الى
ظهور فكار جديدة . وسعى دعاة هذه الافكار والاتجاهات
الجديدة الى ابراز نواقص المجتمع حيث تقوم اقلية بنهب
الاكثرية بوسطة الاستحواذ على انتاج عملها .

طرح هؤلاء ، بمواجهة هذا المجتمع المخل ، مجتمعا
جديدا وصفوه بالاشتراكي والشيوعي ، ودعوا العالم
كافة الى بنائه .

في بداية القرن السادس عشر نشر « توماس مور »
في انكلترا كتابه « يوطوبيا » الذي يمكن اعتباره اولي
تجليات الفكر الاشتراكي . تأتي كلمة « يوطوبيا » من

اليونانية وتعني المكان الخيالي • وتعني هذه الكلمة حسب توماس مور جزيرة خيالية يسودها نظام اشتراكي مثالي • وقد ادى نشر كتابه الى تعميم للعقيدة التي وصفت بالاشتراكية الطوباوية والتي تمثل محاولة ترقية مثالية لبنية المجتمع •

ظهر في اوربا طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر عدد من الكتب تدافع عن فكرة وجود نظام اجتماعي قائم على المساواة والحياة الرغيدة للجميع • غير ان افكار الاشتراكية الطوباوية لم تعرف نموها الكامل سوى في بداية القرن التاسع عشر مع اعمال المفكرين الفرنسيين مثل « كلود هنري سان سيمون » و « شارل فورية » ، وكتب المفكر البريطاني « روبرت اوين » • لقد قام هؤلاء المفكرون ، الذين سموا بكبار الاشتراكيين الطوباويين ، بنقد النظام الرأسمالي باعتباره مصدرا للفقر والفساد •

لعب ممثلو الاشتراكية الطوباوية بلا شك دورا ايجابيا كنفاد للمجتمع البورجوازي وتنبأوا كمدافعين عن نظام اجتماعي اكثر عدلا ، بسمات عديدة من سمات المجتمع الاشتراكي المقبل •

غير ان ثغرة كبرى كانت تميز تحليل الاشتراكيين الطوباويين • كانوا يفهمون ان النظام الرأسمالي لا

يستجيب لمصالح اوسع الجماهير ويطمحون لتغييرات اجتماعية جذرية لكنهم كانوا يرفضون في الوقت نفسه الثورة الاجتماعية كوسيلة لاجتثاث هذه التغييرات . كانوا يدافعون عن مصالح الطبقة العاملة لكنهم في الوقت نفسه يعتبرونها جمهورا جاهلا وخائفا .

لم يكن الاشتراكيون الطوباويون مسؤولين عن اخطائهم . ويمكن تفسير عدم نضج افكارهم وطابعها الخيالي (فيما يتعلق بالمجتمع المقبل ووسائل الوصول اليه) بالحالة البدائية للبروليتاريا في ذلك الوقت حيث انها لم تكن قد تجاوزت بعد الاشكال الاولى للصراع الطبقي .

استطاع الاشتراكيون الطوباويون ان يعوا استغلال البروليتاريا ووضعها البائس . لكنهم لم يستطيعوا تصور كونها مدعوة لتصبح قوة حاسمة في تطور التاريخ ، قوة كفيلة بتدمير عالم الاستغلال وبناء المجتمع الجديد، المجتمع الاشتراكي . ان اكتشاف هذه الحقيقة هو احد اكبر مساهمات ماركس وانغلز . وهذا الاكتشاف هو الذي سمح بتحويل الاشتراكية الطوباوية الى علم . وسنتكلم من الان فصاعدا ، وبلغتنا النظرية ، عن دور الطبقة العاملة التاريخي .

ماهي الخاصية التي اكتشفها ماركس وانغلز في البروليتاريا من اجل تأكيد انها ستكون هي بالضبط لا

سواها المسؤولة عن القضاء على الرأسمالية كما ستكون
مهندسة المجتمع الجديد ؟

شرح ماركس وانغلز هذا الموضوع بتعيين موقع
الطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي . فالبروليتاريا
بالفعل ميزات خاصة تميزها عن غيرها من طبقات المجتمع
البورجوازي . فالبورجوازيون مثلا يملكون المصانع
والمناجم ، الخ ، واللاكون العقاريون يملكون الارض
والمزروعات . الخ ، وصغار الملاكين في المدينة والريف ،
رغم انهم على العموم خاضعون للاستغلال مثلهم مثل
البروليتاريا من قبل كبار الاستغلاليين فانهم يسيطرون
رغم كل شيء على وسائل انتاج صغيرة . اما البروليتاريا
فلا تسيطر على اية وسيلة انتاج . ولهذا فالبروليتاريا ،
من حيث طبيعتها الاجتماعية ، تعارض الملكية الخاصة .
وهي ترغب في التحويل الجذري لكل المجتمع ، واختفاء
الملكية الخاصة ، ووضع حد للقهر والهوس ، ولا تملك
البروليتاريا شيئا تخسره في هذه التحولات الجذرية سوى
قيودها . لكن امامها في المقابل عالما بكامله لتربحه . ولهذا
السبب فهي تشكل الطبقة الاكثر ثورية في الصراع ضد
الرأسمالية وفي بناء المجتمع الجديد .

ان تطور نمط الانتاج الرأسمالي نفسه الذي يوفر
امكانية انشاء مراكز صناعية ضخمة ، هو في اساس
عملية تمركز البروليتاريا في مجموعات كبيرة . ويسمح

العمل الجماعي للبروليتاريا باكتساب حس تنظيمي بالغ التطور . كما ان العمل داخل المصنع يربي العامل بروحية جماعية ، وبنظام قاس ، ووعي للوحدة والتضامن . تلك هي الاسلحة الثمينة للبروليتاريا في صراعها الطبقي ضد الاستغلال الرأسمالي ، وهذا هو ما يسمح للعمال بالتوحد والانتظام افضل من اية طبقة اخرى .

واكتشف ماركس وانغلز ، بالاضافة الى ذلك ، ان العمال بحكم الموقع الذي يحتلونه في الانتاج لا علاقة لهم بمآضهم بل انهم مرتبطون بمستقبلهم ، وبالتالي بمستقبل المجتمع . مما يعني بكلمات اخرى ان تطور الصناعة الكبرى لا يشكل خطرا على استمرار البروليتاريا كطبقة كما هي الحال بالنسبة للفلاحين والحرفيين ، بل على العكس فالعمال يتكاثرون مع نمو الصناعة الكبيرة ، ويتعزز دورهم في الحياة الاجتماعية .

لا يعني كل ما قلناه ان الطبقة العاملة هي صاحبة المطحة الوحيدة في القضاء على العالم الرأسمالي وفي اقامة نظام اجتماعي اكثر عدالة . فأكثرية الشعب ، باستثناء حفنة صغيرة من المستغلين - بكسر الغين - ، معرضة لكافة اشكال الانزال من قبل النظام البورجوازي ، وهي ترغب في التغيير . الا ان الطبقة العاملة هي الاكثر ثورية والافضل تنظيما في المجتمع الرأسمالي وهي المدعوة تاريخيا لقيادة الصراع من اجل تحطيم نظام الاستغلال

وبناء الحياة الجديدة ، والبروليتاريا جديدة ، في المعركة
التي تخوضها من اجل تحريرها ، بتنظيم وقيادة الشغيلة
الاخرين الخاضعين للاستغلال الرأسمالي .

وما ان قتأمن حرية البروليتاريا حتى تؤمن هي تحرر
كافة الشغيلة وتلغي الى الابد استغلال الانسان للانسان .

ولقد برهن ماركس وانغلز ، بتحديدتهما دور
البروليتاريا في المجتمع الرأسمالي ، على انه يجب على
البروليتاريا ان تمتلك حزبها الخاص من اجل قيادة
الصراع الطبقي ووعي دورها التاريخي . فليس بوسعها
ان تدمر العالم البورجوازي وتستبدله بالمجتمع الاشتراكي
الا بهذه الوسيلة . فالنظام الرأسمالي كما أكد ماركس
وانغلز لن يتداعى من نفسه ، والبورجوازية لن تتخلى بطيبة
خاطر عن السلطة وعن الثروات التي تمتلكها . ولهذا
يجب على البروليتاريا ، ما ان تتخلص من البورجوازية ،
ان تفرض ديكتاتوريتها في البلاد . وذلك ان ديكتاتورية
البروليتاريا ضرورية لقهر مقاومة الطبقات المتضررة ،
وتوزيع الاراضي . ووضع المصانع والمناجم ، والمعامل ،
والمصارف ، وسكك الحديد ، الخ بين ايدي العمال ، ومن
اجل الدفاع عن المكاسب الثورية وتعزيزها ، وتنظيم بناء
الاشتراكية والشيوعية . لقد أكد التطور اللاحق للحياة
الاجتماعية صحة اكتشاف الدور التاريخي للبروليتاريا ،
هذا الاكتشاف الذي يشكل احد الاركان الايديولوجية

الماركسية • لقد رصفت الطريق نحو الاشتراكية بالهزائم
المريرة والوحشية • ونجح عالم الرأسمال طيلة سنوات في
سحق محاولات الطبقة العاملة التخلص من نير الاستغلال
وتشييد المجتمع الاشتراكي ، غير ان التاريخ اعطى الحق
لماركس وانغلز •

وفي ١٩١٧ تمكنت روسيا القيصرية من ان تتحرر من
الرأسمالية • ومنذ ذلك الحين والنظام الاشتراكي يتسع
ويتوطد ، مؤكدا صحة هذه العبارة الشهيرة في البيان
الشيوعي « لم تخلق البورجوازية فحسب الاسلحة التي
ستدمرها ، بل ايضا الرجال الذين سيستعملون هذه
الاسلحة ، العمال الحديثين ، البروليتاريين » •

٥ - « البيان الشيوعي » والاممية البروليتارية

بعد صدور البيان الشيوعي (١٨٤٨) بحوالي سبعين سنة انتصرت الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي اولا ثم في البلدان الاخرى التي تشكل اليوم المعسكر الاشتراكي .
غير ان البورجوازية لم تتأخر كل هذا الوقت في اعلان الهجوم الايديولوجي . فلقد حاولت منذ ظهور النظرية الماركسية تشويه طبيعة الشيوعية وحرف الجماهير المستغلة عن الطريق الذي يقودها الى تحريرها الاجتماعي الفعلي . لهذا السبب بدأ ماركس وانغلز كتابة البيان الشيوعي بعبارة « هناك شعب يجول في اوروبا ، وهذا الشعب هو الشيوعية » .

استعملت البورجوازية كل انواع النميمة ضد الشيوعية، وادعت مثلا ان الاممية هي وسيلة لالغاء مفهوم

الوطن والقومية • ولهذا السبب كان ماركس وانغلز يقولان :

« يهتموننا ايضا ، نحن الشيوعيين ، بالرغبة في الغاء الوطن والقومية • ليس للعمال وطن • ولذلك من الصعب ان ننتزع منهم ما لا يملكونه • وبما ان الهدف المباشر للبروليتاريا هو الاستيلاء على السلطة السياسية ولعب دور الطبقة القائدة قومية ، والتشكل كأمة فمن الطبيعي ان يكون لها ايضا طابع وطني ولو كان هذا الطابع متناقض تماما مع ذلك الذي تمنحها اياه البورجوازية » •

كيف تفسر هذه العبارة تفسيراً صحيحاً : « ليس للعمال وطن » • هل اراد ماركس وانغلز الوقوف ضد الشعور الوطني • كلا • الامر ببساطة هو ان في النظام الرأسمالي يملك الوطن حفة تستغله ويجدر بنا ان نذكرها باستمرار بجملة خوسيه مارتى : « الوطن هيك ، وليس موطن قدم » • لا يملك العمال الوطن الا بواسطة الاشتراكية ، فعندها يأخذ الوطن معنى جديداً • وهذا بالضبط ما قاله فيديل كاسترو في التثيلي عام ١٩٧١ : « لقد اتخذ مفهوم الوطن في بلادنا معنى جديداً وذلك ان الوطن بات مسكناً لجميع ابناءه لا لاقلية منهم » •

يجب الحذر من تحول الشعور الوطني التقدمي والثوري الى شعور سخيف ورجعي ، وهو ليس تقدماً

الا بقدر ما يشكل مصدرا للالهام في النضال ضد القمع والسيطرة الاجنبية ، وعندما يكون مشتركا بين مجموع السكان وغير متعارض مع مصالح البروليتاريا العالمية .
لقد كان الشعور الوطني تقدما لحظة النضال ضد السيطرة الاسبانية على اميركا في القرن الماضي ، وهو كذلك الان بما هو مصدر رائع للالهام الشعب الفيتنامي المناضل ضد الامبريالية الاميركية الشمالية .

ان حب الوطن ، بالنسبة للماركسيين ، ليس متناقضا مع الشعور الاممي العميق ، وذلك عندما يتوافق مع التحديد الذي يعطيه له مارتني :

« امي ، حب الوطن

ليس التعلق السخيف بالارض او بالعشب الذي تطاه اقدامنا انه الكره العميق لمن يضطهد الوطن والحدق الابدي على من يهاجمه ... »

ولكن عندما يكون هذا الشعور متناقضا مع مصالح الحركة الثورية العالمية ، وعندما يكون ذريعة لمهاجمة الاممية البروليتارية ، او عندما يخدم لافي توحيد الشعوب بل في استعدادها الواحد على الاخر ، فانه يتحول الى ايديولوجية رجعية بما هو نزعة قومية بورجوازية معادية للوطنية الثورية التي تعلمنا اياها الماركسية اللينينية .

يعلما تاريخ الحركة العمالية كيف استخدمت
« الوطنية الرجعية » أكثر من مرة من قبل العناصر
الانتهازية لخدمة مصالح البورجوازية ، فعشية الحرب
العالمية الاولى قام بعض قادة الاحزاب العمالية في البلدان
الامبريالية المتحاربة ، مدفوعين بوطنية زائفة ، الى دعم
بورجوازيات بلادهم في هذه الحرب التي لم يكن العمال
يملكون فيها وطنيا يدافعون عنه باستثناء وطن مستغليهم .
لقد امتنعوا ، بانتهازية ، عن سماع نداءات لينين الذي قاد
الطبقة العاملة الروسية الى قلب حكومتها الامبريالية
وتحقيق انتصار اول ثورة اشتراكية .

ان الشعور الاممي عند الشيوعيين لا يلغي الشعور
الوطني المتأجج ، كما تدعي البورجوازيات . بل بالعكس
تماما . فالاممية تفترض سلفا الوطنية وتعبّر عنها بحرارة .
ولست الاممية البروليتارية شعارا للتحريض الشيوعي
فحسب ، بل هي ايضا ضرورة من اجل انتصار الشيوعية .

أكد ماركس وانغلز في البيان الشيوعي ان « نضال
البروليتاريا ضد البورجوازية يبدأ كنضال وطني ، في
الشكل لا في المضمون » اي بعبارة اخرى ، ان النضال ضد
البورجوازية هو ، من حيث جوهره ، اممي . لماذا ؟

اجاب لينين بهذا الشكل في « مشروع برنامج
الحزب » عام ١٨٩٥ ، والمنشور عام ١٩٢٤ :

« لقد أصبحت وحدة عمال جميع البلدان ضرورة بحكم ان طبقة الرأسماليين التي تمارس سيطرتها على العمال ، لا تقصر هذه السيطرة على بلد واحد . ان سيطرة الرأسمال عالمية ولذلك لا يمكن لنضال العمال من اجل تحررهم في كافة البلدان من ان ينتصر ، هو ايضا . الا اذا حارب العمال الرأسمال العالمي ، متحدين . »

لهذا السبب نقول ان الاممية البروليتارية ضرورية . وقد قدمت الثورة الكوبية ، باستمرار ، البرهان على ذلك . فاذا كانت استطاعت الاستمرار على مقربة من الامبرياليين الاميركيين فذلك ، بين عدة عوامل اخرى ، بفضل التضامن الاممي . بفضل الدعم المتنوع الذي منحها اياه عمال العالم قاطبة . وحول هذا الموضوع قال فيدييل كاسترو لقادة « الاتحاد النقابي الوحيد » في التشيلي يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٧١ : « كيف كان بوسعنا تجاوز هذا الامتحان لولا التضامن ؟ لهذا السبب نحن نمنح التضامن اهمية قصوى . »

وفي اليوم التالي اعلن كاسترو :

« تخلق الثورات وعيا يتجاوز حدود الامة الضيقة ، وهي تطالب بالاخوة بين الشعوب والمقهورين والمستغلين ، عوض ان تثبر الكراهية . هذا ما نسميه الاممية . هذا هو روح التضامن الذي يحرك شعبنا حيال فييتنام . . . »

ان الاممية هي هذا النوع من التضامن الذي وصفه كاسترو في التشيلي والذي افاد الثورة الكوبية كثيرا
كما ان العمال الكوبيين برهنوا عن تضامنهم الاممي اكثر من مرة ولم يترددوا في اراقة دمائهم لمساعدة بلدان اخرى في تحريرها .

ولا يمكننا ان نتكلم عن الاممية دون ان نذكر مرة اخرى احد اكبر المناضلين الامميين في عصرنا الذي مات ببطولة يوم ٨ اكتوبر ١٩٦٧ . لقد مات تشي (غيفارا) دفاعا عن هذا المبدأ . واننا لنتذكر حتى اليوم خطابه يوم ١١ ديسمبر ١٩٦٤ امام الامم المتحدة : « لقد ولدت في الارجننتين وليس هذا سرا بالنسبة لاحد . انا كوبي وارجنطيني معا ، ورغم امكانية اثاره بعض شخصيات اميركا اللاتينية الشهيرة يمكنني القول اني احس انني مواطن اميركي - لاتيني من اي بلد في اميركا اللاتينية . وأنا مستعد في اللحظة المناسبة للتضحية بحياتي من اجل تحرير اي بلد من بلدان اميركا اللاتينية بدون ان انتظر اي شيء من احد ، وبدون ان اطلب شيئا ، او استغل احدا . »

وبعد بضعة اشهر استأذن من شعبنا، ويمكن ان نجد في كلمات الرسالة التي وجهها الى كاسترو اسمى تعبير عن الاممية الحققة : « النضال ضد الامبريالية حيثما تكون » هذا خير عزاء ، وهو البلمس لاعمق الجراح !

٦ - الاخلاق البرجوازية والاخلاق البروليتارية

الانسان كائن اجتماعي ولا يمكن التصور اطلاقا انه يتمكن من العيش خارج المجتمع . ويفرض هذا المجتمع عليه قواعد تحدد سلوكه في العلاقات مع الآخرين ومع المؤسسات الموجودة ، بكلمة اخرى يفرض المجتمع على الانسان اخلاقا معينة .

وفي هذا المجال كما في غيره يعود التناقض بين البورجوازيين والبروليتاريين الى اكثر من مئة سنة . اعطى ماركس وانغلز في البداية ، في البيان الشيوعي ، جوابا واضحا على الزمامين الذين يدعون ان الشيوعية تهدف الى الغاء سلسلة من « الحقائق الابدية » من بينها الاخلاق . فبالنسبة للبورجوازيين لا يوجد شيء باستثناء ملكيتهم ، وثقافتهم ، وعدالتهم ، وحريتهم واخلاقهم ،

وهكذا فانهم يرون في اختفاء الاخلاق البورجوازية
اختفاء كل اشكال الاخلاق .

ترفض البورجوازية ان ترى الاخلاق ، كأي شكل
آخر من أشكال الوعي الاجتماعي ، انعكاسا لشروط الحياة
المادية في فترة محددة وانها بالتالي مدعوة حكما للتبدل
مع تبدل هذه الشروط ففي قلب النظام الرأسمالي مثلا ،
وبموازاة الاخلاق الرجعية والمنحطة للطبقة الحاكمة تبرز
وتتطور اخلاق جديدة ، الاخلاق البروليتارية التي ستصبح
مع انتصار الشيوعية ، اخلاق المجتمع كافة غير ان هذا
الامر مرفوض من البورجوازية .

يهدف هذا المقال بالضبط الى ايضاح الفروقات بين
هذين المفهومين المتناقضين عن الاخلاق .

تعتبر البورجوازية انه من الاخلاقية بمكان رفيع ان
تكون الاراضي ، والمصانع ، ووسائل النقل ، وكل ما يمكنه
ان يكون ملكية خاصة ، بين ايدي اقلية من البشر . وهي
تعتبر ان امتلاك الملاكين لهذه الحاجيات بواسطة نهب
واستغلال الآخرين ، امر اخلاقي . ولا شيء اكثر فعالية
برأيها من وجود المنافسة المسعورة المحكومة بالتعطش الى
الربح ، ومن الصراع الوحشي الذي يخوضه البشر فيما
بينهم للهرب من الخراب والفقر . وقد قيل عن حق ان
المضاربين قد يرغمون الفقراء على العيش في الظلام لو
كان باستطاعتهم احتكار نور الشمس .

من الطبيعي ان يكون هذا الصراع المرير محكوما
باخلاق فردية ، اثنائية ، ومن الطبيعي جدا ان يكون المبدأ
القائل بأن « الانسان هو ذئب بالنسبة لاخيه الانسان » هو
قاعدة الاخلاق البورجوازية ، وان يصبح المثل الشعبي
« من لا يريد ان يكون سندانا عليه ان يكون مطرقة » قانونا .

تدين الاخلاق البورجوازية بدون رحمة الذي يعتدي
على الحق « المقدس » في الملكية الفردية ، وتعاقب الذي
يسرق حتى لا يموت جوعا والذي يثور ضد ظلم النظام .
غير انها تمجد الشركات الكبيرة وكبشار ملاكي الاراضي
والاحتكارات الهائلة التي تسيطر على مصائر المجتمع .
وغالبا ما نسمع في الولايات المتحدة من يقول : « اذا
سُرقت رغيفا فنصيبك السجن ، اما اذا سُرقت
سكة حديد فستنتخب الى مجلس الشيوخ » .

يلغي المجتمع الاشتراكي الملكية الفردية والاستغلال
والقمع . وهو يدين الاستهلاك الفردي لحاجات انتجتها
المجموعة كما يدين استغلال البشر بعضهم لبعض . وهذا
هو بالضبط ما يميز الاخلاق البروليتارية التي قال عنها
لينين : « ان ما هو اخلاقي هو ما يساعد على تقويض
المجتمع القديم القائم على الاستغلال وهو ما يساعد على
توحيد كافة العمال من اجل خلق المجتمع الشيوعي .
الاخلاق الشيوعية هي سلاح في هذا النضال وهي التي
توحد العمال ضد كل اشكال الاستغلال » .

تعلن الاخلاق الاشتراكية ، على عكس الفردية والبورجوازية ، الالهية الحاسمة للمصالح الاجتماعية التي ترتبط بها مصالح الفرد ، وهي تشجع لدى الانسان نمو مشاعر الاخوة والروح الرفاقية والتضامن ، وتساهم في ارساء اسس المجتمع العادل حيث الانسان هو بالفعل اخ الانسان .

وتمنع الاخلاق البروليتارية المنافسة الرأسمالية . لكنها تسمح بالمزاحمة الاخوية بين العمال لخدمة اهداف مشتركة . وهي مزاحمة قائمة اساسا على الجهد الجماعي في جى من التعاضد والتعاون . وتشكل هذه المزاحمة وسيلة اخرى لتربية الجماهير على مبادئ الشيوعية . ان تكريس المناضلين البروليتاريين انفسهم تكريسا مطلقا للقضية المقدسة التي يدافعون عنها ، وبطولتهم غير المحدودة ، وتواضعهم وصراحتهم وجديتهم وترفعهم ، تعطي الاخلاق البروليتارية قيمة اعلى من الاخلاق البورجوازية المتهافئة والفاسدة .

الاخلاق والعمل

تعتبر الاخلاق البورجوازية ، مثلها مثل اخلاق اصحاب العبيد او السادة الاقطاعيين ، ان العمل هو وسيلة لاستغلال الجماهير غير المالكة . العامل في عصر الصناعة الكبرى ليس سوى امتداد للالة ، والعمل يحطمه

جسديا ونفسيا . ويفسر هذا الظاهرة المتناقضة وهي ان العمل رغم كونه مصدر وجود الانسان وحاجته الحياتية الاولى يصبح مصيبة على العامل ، وتحقيرا له .

وقد عبرت السخرية الشعبية بأكثر من طريقة عن هذا القرف من العمل ووصل الامر حد تشويه اصول دور العمل . ولدينا مثال على ذلك في اغنية معروفة جدا في كوبا . وهي تقول : « يسمونني زنجي الضاحية الصغير وعدوي هو العمل واترك للبقرة كل الطعام لان الشغل عقاب من الله . »

تحمل الاخلاق البروليتارية مفهوما اخر للعمل . ترسي الثورة الاشتراكية ، بالغاء الملكية الفردية ومعها استغلال الانسان للانسان ، اسس اعتبار العمل وسيلة للبقاء فحسب ، لتحوله لاحقا وفي المجتمع الشيوعي الى طبيعة ثانية للانسان .

ان الاخلاق البروليتارية ، التي من مبادئها « من لا يعمل لا يأكل » تقضي على الكسول والطفيلي ، وتمجد الرجال الذين ينتجون بجهودهم كل خيرات المجتمع . ولذا فأننا في كوبا نعتبر العمل مسألة شرف ونحيط العامل الطبيعي بالاحترام الذي يستحقه .

اثناء فترة بناء الاشتراكية ، وعندما لا يكون المجتمع قادرا بعد على كفاية حاجات الجميع ، فإن العمل هو

المقياس الذي نعتمده لتوزيع الحاجات المنتجة ومحاكمة السلوك الاجتماعي للعامل . غير ان هذا ليس العمل الشيوعي .

لكن العامل ، حتى في تلك الفترة ، يقدم للمجتمع عملا لا يجازى عليه ، مجانيا ، وذلك من اجل تجنب فقدان عمل سابق او التخفيف من المصاريف الاجتماعية للدولة . انه العمل التطوعي المبذول بوعي وبداهة من قبل العمال وبفضل مبادئ الاخلاق الجديدة ، وعلى أساس هذا النمط من العمل الذي وصفه لينين «بنواة الشيوعية» يمكننا التوصل الى الشكل الاعلى من العمل الاجتماعي الخاص بالمجتمع الشيوعي .

الاخلاق ، العنصرية ، والقهر الوطني

يرى البرجوازيون في كل ما يمكنه ان يحافظ على نظام الاستغلال والقمع اثرا اخلاقيا . ولهذا فانهم يبررون الشيفينية والكوسموبوليتية ، والقهر الوطني ، والعنصرية والحروب ، والابتزاز الامبريالي . لم يخرق هتلر قوانين الاخلاق البرجوازية عندما قضى على ملايين اليهود ، كبهائم ، وكذلك اصحاب العبيد في افريقيا الجنوبية بمساندتهم سياسة « التفرقة العنصرية » غير الانسانية ، وكذلك ايضا الاحتكارات الامبريالية عندما تنهب بلا شفقة البلدان المتخلفة والخاضعة للاستعمار .

ان نفاق الدعاة البرجوازيين فيما يتعلق بمفهوم

الحرية والديمقراطية والسلم والاستقلال الخ يبدو فاقعا
امام حوادث مخيفة من نوع مجازر « اليانكي » * .
في فييتنام وبلدان الهند الصينية الاخرى ، تثبت
لنا عمليات القصف الكثيفة ، والهجمات الجوية واحراق
الغابات ، والحرب الكيميائية والجرثومية التي يشنها
مجرمو الحرب ان الاخلاق البورجوازية يمكنها ان تبرر
ابشع الجرائم .

امام مثل هذه الوقائع الملموسة يبدو واضحا ان
عميد جامعة تامبا في اميركا الشمالية عندما يبرر (عام
١٩٥٠) الوسائل البربرية التي يستعملها اليانكي لا يكون
في معرض طرح رأي شخصي بل يحدد بوضوح المعالم
الاخلاقية للبورجوازية الامبريالية المعاصرة .

وهاكم ما يقوله السيد مونسون هذا : « يجب علينا
ان نصل الى قدرة مطلقة على تكيف الوضع حسب شريعة
الغاب . على كل واحد ان يتعلم فن القتل . فأننا لا اعتقد
انه يجب ان تقتصر الحرب على القوات المسلحة والقوات
البحرية والجوية ولا يجب على الاطلاق وجود اي تحريم
بشأن وسائل التدمير او الاسلحة المستخدمة . أنا لا ادين
الحرب الجرثومية ، واستخدام الغاز والقنبلة الذرية
والهيدروجينية ، والصورايخ العابرة للقارات ، كما اني

* اليانكي : اسم يطلق على الاميركيين الشماليين في اميركا
اللاتينية .

أرى أنه لا يجب على أي مستشفى أو كنيسة أو مؤسسة علمية أو أي نوع آخر من ذلك أن يشكل استثناء ٠٠٠ أنه لمن الخبث الرغبة في إظهار الرفق حيال أية مجموعة كانت ٠ »

إن الشيوعيين مفهوماً عن الأخلاق مختلفاً تماماً ، وهم يعتبرون أمورا من هذا النوع بالغة الضرر ويشجعون كل ما ينادي بالتححر الوطني والاجتماعي وكل ما يمكنه أن يضع حداً للنهب الامبريالي ٠ وتمجد الأخلاق البروليتارية رغم حربها ضد الوطنية البورجوازية والثوفينية والكوسمو بوليتية ، الشعور الوطني الاشتراكي وتطور حب التقاليد الثورية للشعب وتقوم على التضامن الاممي بين العمال وتفضح ايدولوجية الطبقة العاملة المفاهيم العنصرية للبورجوازية وتحطم الحواجز التي تفصل بين العمال ٠ ويرى الشيوعيون أن عمال جميع البلدان وبغض النظر عن العرق والقومية ، هم أخوة ٠

لقد أطلق البيان الشيوعي بالتحديد الشعار الذي انتشر في العالم وغزا قلوب وعقول الجماهير المسحوقة : « ياعمال جميع البلدان ، اتحدوا » ٠

وبمواجهة نفاق الاخلاقيين البورجوازيين الذين يدعون الى التواضع والخضوع والهدوء في الوقت الذي تقوم فيه حكوماتهم بزرع الرعب والموت ، تشجع الاخلاق الشيوعية الاقدام الثوري لدى العمال ، والنضال ، وكره

الاستغلال • وقد قال البطل التشيلي هوليوس فوشيك :
« نحن الشيوعيين نحب السلم ونناضل من أجله • ونناضل
في سبيل تنظيم للعالم يجعل من المستحيل على بعض
المجرمين ارسال ملايين البشر الى الموت • »

الاخلاق ، العائلة ووضع المرأة •

ان البورجوازيين الذين يتهمون الشيوعيين بالرغبة
في الغاء العائلة وجعل المرأة مشاعا ، يعتبرون زواج
المصلحة عملا اخلاقيا ولو كان في سبيل منفعة اقتصادية
أم اجتماعية • ويؤكد اعلان ظهر في الصحيفة الاميركية
«نيوداي» ما قلناه : «امرأة شقراء ، مطلقة ، مثيرة تبحث
عن رجل مستعد للزواج منها ، ولتمويل احتياجاتها
 واحتياجات اولادها ، وعلى من يوافق ان يعقد اتفاقا ويدفع
مباشرة عشرة الاف دولار » • لا يوجد شيء اكثر من هذا
يؤكد ما ذهب اليه « البيان الشيوعي » من ان
البورجوازيين يجدون « متعة خاصة في خيانة بعضهم
البعض ومن ان الزواج البورجوازي هو في الواقع ،
مشاعية النساء » •

تطالب الاخلاق البورجوازية بنفاق ، بالمساواة في
الحقوق بين الرجل والمرأة • وهي تمجد فضائل المرأة التي
تبقى في الممارسة عبدة او موضوعا للاستغلال والمتعة
ويرى البورجوازيون ان دفع اجر للمرأة اقل من الاجر

المدفوع للرجل ومقابل العمل نفسه هو عمل اخلاقي ، وقيام ارباب العمل وابنائهم باغراء زوجات او بنات العمال والفلاحين هو عمل اخلاقي ايضا ، وكذلك الاستمرار في تجارة الجسد القائمة على بؤس وجهل وعجز المرأة المسكينة .

ليست المساواة بين الرجل والمرأة سوى فخ من افخاخ النظام الرأسمالي ففي ايرلندا مثلا يعتبر الزوج « مالكا شرعيا » لزوجته وعملا بهذا المبدأ حكمت محكمة في « دبلن » على رجل بدفع تعويض محترم « لاغتصابه » امرأة رجل اخر . وقد استطاع المتهم ان يأخذ المرأة معه لان التعويض الذي دفعه يحرم الزوج من « حقوقه »

ومن الاخلاقية بمكان عند البورجوازيين حرمان الاطفال الفقراء من طفولة سعيدة ، ومن امكانية الدراسة والتمتع بلحظات سعيدة ، وذلك بارغامهم على العمل باجر منخفض ويوجد حتى اليوم في البلدان الرأسمالية ، ورغم كل المكاسب العمالية ، ٤٣ مليون طفل يعيشون في ظروف فاضحة ، حسب احصاءات « مكتب العمل الدولي » . ان الروابط التي توحد العائلة البورجوازية تتفكك يوما بعد يوم على عكس ما يقول المنافقون الرأسماليون تماما للعائلة ، والمرأة ، والاولاد . فزواج المصلحة غير اخلاقي ومهين ، ووحدرة المرأة والرجل قائمة على الحب المتبادل ، والاخلاص ، والثقة المتبادلة . لقد وصف لينين الحب

الحر ، في معرض نقده للرفيعة ايتيسا ارمان بانه مطلب
بورجوازي لابروليتاري » .

ويدين المجتمع الاشتراكي كل اشكال التمييز ضد
المرأة ويضمن المساواة المطلقة مع الرجل ليس امام القانون
فقط بل في الممارسة ايضا . والثورة الكوبية نموذج على
هذا . فم منذ البداية قامت باغلاق منازل البغاء وبشرت
عملية اعادة التنقيف بهدف منح كل النساء امكانية رفع
مستواهن الثقافي . وامنت لهن عملا مفيدا ومشرفا
مستأصلة من الجذور كل الاسباب الاقتصادية للاستغلال
والعبودية .

ومن جهة اخرى تضمن الثورة للاطفال والشباب
حقهم في التعلم وفي السعادة والتسلية الخاصة
بعمارهم . ولقد الغت الاسباب التي حرمت الاطفال ، في
الماضي من مباحج الطفولة والشباب .

وان الاهتمام الذي توليه الثورة لوضع حلول لهذه
المشكلة - رغم ضالة الموارد الناتجة عن صعوبة
الظروف - يضع حدا للانحلال الذي سببته الانحطاط
البورجوازي ، ويسمح بقيام علاقات عائلية صحية وملائمة
هكذا تخلف الاخلاق الاشتراكية الجديدة الاخلاق
البورجوازية التي فقدت كل اعتبار .

الاخلاق ، الربح والسلعة

ان المجتمع البورجوازي محكوم بالعطش الى الربح ، وهو يربط اي مبدأ بهذا الهدف الاولـي . ولهذا فان الرأسماليين يمجدون الطفيلية الاجتماعية بكل اشكالها . ولقد كانت كوبا ، في ظل الاستعمار ضحية للفساد المنظم ولانتشار التجارات المشينة (المراهنات الكازينوهات ، اليانصيب ، صراع الديوك) . . . لقد كان البورجوازيون الفاسدون منصرفين الى مآذلهـم ومستغلين بساطة الذين ينتظرون ضربة حظ من البؤس .

وكانت النميمة وسيلة اخرى لاثراء الطفيليين البورجوازيين المجردين من اي احترام والمنصرفين الى الاتجار بالمخدرات والتعيش على الميـغاء وتجارة الجنس . ولم يكن تجار الانحطاط هؤلاء مهتمين بتحلل الاخلاق وتفكـك العائلة وفساد الشبيبة والامراض الاخرى التي يجـرها تعـطشهم الهائل الى المال .

ويرى البورجوازيون ان المال هو مقياس كرامة ، فكل شيء ، عند الرأسمالية ، بمثابة سلعة . ليس فقط منتوجات الارض والصناعة وقوة عمل الانسان . بل ايضا الافكار والشرف والفضائل والجمال والحب وموهبة العالم او الفنان ، والهـام الكاتب او الشاعر ودروس المعلم وعناية الطبيب وحرية اختيار المقترعين . . كل شيء يشرى ويباع . لكل شيء ثمنه والمال يكفي لشراء اي شيء .

« معك قرش بتسوى قرش » هذا هو شعار الاخلاق
البورجوازية .

تسبب هذه الاخلاق الماركنتيلية - التي تسمح لرواد
الفضاء بالتجارة برحلاتهم الى القمر - كل يوم ، عددا
كبيرا من الضحايا الانسانية . ففي الولايات المتحدة يوجد
٤٠ مليوناً من البشر يتركون لمصيرهم عندما يمرضون
وذلك لان الاطباء يطلبون حدا ادنى قدره ١٥ دولار ثمنا
لاستشارة بسيطة ، والف دولار لعملية زائدة ، والف ومئتي
دولار لاسبوع من الاستشفاء .

كم ان المجتمع الاشتراكي مختلف عن كل هذا
فالاخلاق البروليتارية تدين كل مراهنه على الجهل وعلى
حياة وحاجات الآخرين . ففسي كوبا يقوم الاساتذة
والمحترفون بخدمة المجتمع واذا حدث في كوبا ان كان احد
المواطنين بلا مدخول فانه يتمتع مجانا بكل المكتسبات
الاجتماعية التي امنها الثورة من تعليم او خدمات صحية ،
الخ . .

ان كوبا تطبق شعار الاخلاق الاشتراكية : « كل
شيء من اجل الانسان ، كل شيء من اجل خير الجنس
البشري » .

نحو انتصار الاخلاق الجديدة

تفتح الثورة الاشتراكية الطريق السى الاخلاق

الجديدة غير انه يبقى ، في فترة بناء الاشتراكية ، وخاصة في المراحل الاولى ، بعض بقايا الاخلاق البورجوازية ، ناتجة عن الانظمة السابقة ويحتفظ قسم من السكان طيلة هذه الفترة بالعقلية والافكار والاحكام التسي تحكم بالذهن الشعبي لعدة قرون . كما اننا نجد بعض حالات السلوك السلبي حيال العمل (استنكاف ، اهمال ، عدم بذلك جهد) وتبذير الموارد الانسانية والمادية ، والبيروقراطية والفردية ، والتحلل في الحياة الشخصية ، الخ . ويجب علينا ان نقف بحزم في وجه هذه الظواهر الانتقالية غير الاخلاقية .

يقول القائد كاسترو « يجب ان نخلق اسس الحياة الجديدة يجب استبدال الواجهة البورجوازية السابقة ، وعادات الحياة البورجوازية بحياة بروليتارية ، بفر-بروليتاري ، بالروح والتفاؤل والحماس السليم والاخلال لشعب من العمال » .

ان للحزب والشبيبة الشيوعية والمنظمات الجماهيرية والتنظيمات المسؤولة عن التربية والثقافة دورا اوليا في هذا المجال . ان علاقات الانتاج الجديدة تقدم الشروط المطلوبة لانتصار الاخلاق الجديدة . ان العلم والادب ، والفن ، والسينما ، والمسرح ، والتلفزيون والصحافة ، والراديو ، والمدارس ، وصالات المحاضرات هي كلها ، وسائل في خدمة العمال الحاكمين .

ونملك من أجل خوض هذه المعركة القاسية سلاحا عظيما : الارث الايديولوجي لكبار معلمي البروليتاريا العالمية ، وخاصة المثال الذي تركه لنا ابطال النضال الثوري في بلدنا ، ويرمز اعظم مناضل عندنا ، ارنيستوتشي غيفارا الى هذا الارث الضخم باعتباره الرجل صاحب المزايا الانسانية والثورية الاستثنائية والذي كانت حياته وموته دروسا مجيدة .

هكذا ترتسم صورة الانسان الجديد ، انسان المستقبل ، ونتاج الاخلاق الشيوعية انبل اخلاق في العالم ، على انقاض النظام السابق الفاسد .

٧ — استغلال الرأسمالية للأطفال

« وليام وود » كان في السابعة وسبعة أشهر من العمر حينما بدأ العمل • ومن البداية ، كلف وليام بحمل القطع الجاهزة الى رف جاف واحضار القوالب الفارغة الى الورشة • وكان وليام يبدأ عمله كل يوم ، عدا أيام الآحاد ، في السادسة صباحا ويستمر في العمل حتى التاسعة مساء •

وبالطبع ، فان وليام لم يكن قادرا على التكهن بأن اسمه سيدخل التاريخ وسيظهر في أعظم منجزات الفكر البشري : رأس المال • ذلك ان كارل ماركس أشار اليه بالاسم حينما كان يندد ويكشف عن الاستغلال الرأسمالي لقوة عمل الاطفال قبل قرن من الزمن •

ان مقولات الرجل « الذي عمل من أجل خير الانسانية »

لا تزال صحيحة • فالاطفال مازالوا يستخدمون كادوات لاشباع نهم الملاك في المجتمع الذي حله مؤسس الاشتراكية العلمية ، واستغلال وقتل الاطفال لم يتوقف • ان نحو ٤٥ مليون طفلا تحت سن الرابعة عشرة - وفقا لتقديرات متحفظة - يخضعون لاستغلال رأسمالي مشين ، وتجري بشكل مستمر عملية تدمير اجتماعية للاطفال - الذين هم الخلايا الحية للمجتمع - بحيث يقذفون الى مستوى متدن من الفوضى التي تحولهم في النهاية الى أشلاء انسانية •

ان قضية « مانويلزينو » ، وهو طفل برازيلي في الثامنة من العمر ، الذي ينقل أكياس الملح من الشروق حتى الغروب في مرفأ على نهر الامازون ، تشبه بشكل مأساوي قصة وليام وود التي ذكرها ماركس •

وقد نشرت منظمة العمل الدولية مؤخرا تقريرا ، كشف النقاب عن حقائق واحصاءات حول الاستغلال الذي لا يرحم للاطفال في عالم العقول الالكترونية ، والمكنسة ، والفيزياء الفضائية ، وفي عصر الجمعيات الاميركية للرفق بالحيوانات •

وقد رت منظمة العمل الدولية ان ٤٤ مليون طفلا تحت سن الرابعة عشرة كانوا « نشيطين اقتصاديا » عام ١٩٧٠ ، وبينهم نحو ٤٠ مليون في الدول المتخلفة . والباقي في الدول الرأسمالية • وهذه على أي حال تقديرات مبدئية ومتحفظة •

ونتساءل : كم من الاطفال الـ ٣٠٠ مليون الذين هم تحت سن الرابعة عشرة ويعيشون في المناطق الريفية من الدول المتخلفة ، يقعون في الواقع ضمن اطار الفئة العاملة والمنتجة ؟ وكم من هؤلاء الاطفال يدخلون المدارس ؟ ان منظمة العمل الدولية لا تعطي جوابا محددا ولا أحد يستطيع ذلك .

بيد ان الاحصاءات والحقائق التي نشرت ، مذهلة . .
برغم محدوديتها . . انها مذهلة ليس بسبب الأرقام التي تكاد تنطق ، بل اساسا بسبب تدهور البشر وعدم تقدير الانسان كإنسان . . وأيضا بسبب جدار اللامبالاة الذي يحيط بهذه القضية . . جدار يصبح هدمه في بعض الاحيان اصعب بكثير من فلق الذرة ، كما لاحظ اينشتاين .

وهذه الحقائق مذهلة لانها تتحدث عن اطفال تتحول بالنسبة لهم الاطعمة البسيطة ، او طعم الخبر . . الى اكتشافات كولومبوسية .

. . انها مذهلة لاننا نتحدث عن « رجال ونساء » تحت سن الرابعة عشرة من العمر : يعيشون حياة فارغة ويحرمون من كل الحقوق الانسانية ويتعرضون لاستغلال بربري وبشع . . ويملكون تجربة ضخمة . . من الصيام طوعا : صيام فكسري . . صيام بيولوجي . . وصيام سياسي .

بماذا يمكن لضحايا هذا الوباء ان يأملون ؟ وأي افكار تجول في رؤوسهم الصغيرة ؟ أي احلام ؟

••• لا احلام • لا افكار • انهم لا يطلبون شيئاً •
لقد نزع منهم كل نشاط ، كل راحة ، كل فكر ، كل ارادة •
بنات واولاد دون دراجات او ألعاب او فيتامينات ، او
مدارس •• انهم لا يعلمون شيئاً عن الجغرافيا او القواعد
او الرياضيات •

ان المجتمع يملأ عقولهم بالتوافه ، وهو شيء اخطر
من ملء رئة شخص ما بالدخان • رؤسائهم ومديروهم
يعاملونهم بنفس الوحشية والقذارة التي كانت موجودة ،
قبل قرن من الآن • وهؤلاء المستغلون (بكسر الغين)
يشبهون تماما ساحرات ديلنفين اللواتي يعذبن الاطفال ثم
ياكلنهم ، ولا يختلفون عن الساحرات في شيء سوى ان
الاولاني التي يستخدمونها هي الملكية الخاصة والمؤسسة
الحررة • ان اولئك الساحرات هن جزء من اسطورة • ولكن
استغلال عمل الاطفال •• حقيقة •• حقيقة :

ومن بين الحقائق الفريدة التي ذكرها تقرير منظمة
العمل الدولية ، نقتطف التالي :

•• الانماط العديدة من الاعمال التي يمارسها
الاطفال ، تشمل العمل في الورشات والمصانع مثل صناعات
الغزل والنسيج ، والمعادن ، وصناعة السجاد والاحذية

والالعب والازرار وغيرها •

•• في العديد من الدول ، يوظف الاطفال فهمي اعدال
خطرة : مثل صناعة الصواريخ ونفخ الزجاج ونقله وتسليم
المواد السامة ••

•• في كل انحاء العالم ، يعمل الاطفال في متاجر
صغيرة ومطاعم وفنادق وفي بيع السلع في الشوارع
وانماط اخرى من الاعمال •

••• في معظم مدن افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية
والشرق الاوسط ، تجبر الفتيات على العمل كخدمات
ويعمل الاولاد في تنظيف الشوارع او تنظيف احذية المارة •
•• في العديد من اجزاء العالم ، يباع الاطفال
كخدم •

•• في منطقة من تايلاندا ، يعمل الاطفال الذين
تتراوح اعمارهم بين عشرة و ١٥ عاما ، بين ٨ الى ١٤
ساعة يوميا مقابل اجور تافهة ويكون الاطفال في اماكن
عمل غير صحية وسيئة الاضاءة والتهوية •

•• في جنوب اوروبا ، يعمل الاطفال عادة في الحقول
والرعاية بالحيوانات • وهؤلاء ينالون اجورا قليلة للغاية
وغالبا لا يحصلون سوى على الطعام ومكان للنوم •

•• وفي الولايات المتحدة ، تعمل اعداد كبيرة من
الاطفال في الزراعة •

٠٠ وفي ولاية نيويورك وحدها ، توفي ٤٧ طفلا
تتراوح أعمارهم بين خمس و ١٤ سنة نتيجة لحوادث العدل
في الفترة بين ١٩٤٩ و ١٩٦٧ .

ان الصحافة البورجوازية تنشر انتقادات متقطعة
لهذه الاوضاع المذلة ولكن هذه الانتقادات التي تقدم كقطعة
حلوى أدبية ، لا تفعل شيئا لوقف هذه الجرائم الاجتماعية .

فمجتمع الملكية الخاصة يعتبر ان الطفل الذي يبلع
العاشرة والذي يعمل عشر ساعات في اليوم هو طفل
« نشيط اقتصاديا » .

ومسألة تحرير الانسان من الاستغلال ليست مشكلة
من مشاكل علم الالفاظ ، كما أنها ليست مسألة بيولوجية
بحيث يجب ان تنتظر الانسانية مئة عام لتحصل على جيل
جديد عبر تزاوج علمي .

ان ٤٥ مليون طفلا ٠٠ لا يستطيعون الانتظار مئة
سنة اخرى ٠٠٠

٨ — استغلال الرأسمالية للنساء

نشر البيان الشيوعي في بدايته ٤٨ أي عندما كان النظام الرأسمالي في أوج انطلاقته وانتقاله الى أرجاء العالم ووضع حدًا لعزلة البلدان التي عاشت قرونًا على هامش الحضارة .

ساهمت الثورة الصناعية التي حدثت في منتصف القرن الثامن عشر في بريطانيا في انطلاق الرأسمالية فاختراع الآلة البخارية واستخدامها في الصناعة ضاعفا الانتاج والمردود ودخلت الرأسمالية منذ ذلك الوقت في مرحلتها الصناعية ، وتفاقم التناقض الطبقي مع تزايد استغلال العمال من قبل ارباب العمل . لقد وفر البيان الشيوعي للطبقة العاملة استراتيجية وتكتيك النضال لمواجهة البورجوازية المستغلة .

يتطلب تطور الانتاج الرأسمالي المزيد من اليد العاملة • وبفعل تسهيل العمل الذي أحدثته الآلة أصبح قسم كبير من اليد العاملة مؤلف من النساء والاطفال الذين ينالون اجرا ادنى من اجر الرجال للقيام بالعمل نفسه وهذا يضاعف من نسبة الاستغلال •

لم تتأخر النساء في الوقوف ضد هذا التمييز واستطعن في بعض البلدان الحصول على تشريعات تعترف بحقوقهن • غير ان هذه التشريعات لم تلاق الاحترام في كل الامكنة • حتى ان المرأة ، في بعض البلدان الرأسمالية ، زالت تشكل قوة عمل ارخص من الرجل وأكثر قابلية ، بالتالي ، للاستغلال •

وقد طرح البيان الشيوعي هذا الشكل من الاستغلال وعاد ماركس لتوسيعه في كتاب « رأس المال » •

ايام ماركس حاول بعض الاشتراكيين وعلماء الاجتماع تجنب موضوع المرأة بارغامها على عدم العمل وبتحديد دورها في اطار المنزل • وهذه هي مثلاً حالة البرودونيين الذين ارادوا ، اثناء انعقاد الاممية الاولى ١٨٦٤ ، دفع المنظمة العمالية الاممية لاتخاذ قرار يمدح النساء من العمل باعتباره شيئاً غير اخلاقي • وقد تصدى

ماركس ، عضو المجلس العام لهذه المنظمة ، مباشرة لهذه الدعوة واقترح ضبط عمل النساء والاطفال خاصة فيما يتعلق بعمل الليل والاعمال التي قد تضر جسديا او اخلاقيا بالنساء والاطفال . وفي الحقيقة كان ماركس يعترف بالطابع التربوي للعمل وهو مبدأ استعادته الثورة الاشتراكية حاليا .

من جهتها لم تتورع البورجوازية عن تشغيل المرأة طيلة اليوم وفي اماكن مضرّة ومقابل اجور بائسة ، في حين كانت ، اي البورجوازية ، تعلن بسخط ان الشيوعيين يستهدفون طهارة المنزل والعائلة ، وانهم يريدون جعل المرأة مشاعا . في البيان الشيوعي ينزع ماركس وانغلز القناع عن وجه البورجوازية وسلوكها الخبيث .

زواج المصلحة والبقاء

ويبرهنا ان العائلة البورجوازية محكومة بالرغبة في الربح والاثراء . وفي الواقع لا يخفى على احد انه بقدر ما تكون العائلة البورجوازية مرتاحة ماديا بقدر ما تقلل امكانية اقدام الاولاد على زواج حب . ويصبح الزواج عملية تجارية خالصة تضع جانبا كل شعور ولا تعتبر سوى الوضع الاقتصادي للمتعاقدتين . العائلة ، بالنسبة للبورجوازية هي الضمانة لرؤية الثروة المراكمة وهي تنتقل الى الورثة .

اما البروليتاريون ، فعلى العكس ، يصطدمون بكل أنواع المصاعب لدى مباشرة تأسيس أي منزل وذلك ان الاجور البائسة التي يتقاضونها لا تسمح لهم باعالة عائلاتهم .

ما هو شكل العائلة الذي تحاول البورجوازية تعميمه؟ انه الشكل الذي يسمح لها بالحصول على ورثة تسلمهم الثروة التي يضاعفها زواج المصلحة الرائج جدا في الاوساط البورجوازية .

لا تتصور البورجوازية وجود شكل آخر من العائلة غير الذي اوجدته ولذلك فهي تعتبر ان الشيوعية ، بالغائها البورجوازية ، ستلغي كل اشكال العائلة ، في حين ان حقيقة الامر هي استبدال العائلة البورجوازية ببنية عائلية جديدة لا يكون الاطفال فيها مجرد أدوات بين ايدي اهلهم ، ومجرد وسائل للاثراء واكتساب مواقع اجتماعية مربحة .

ولا شك في ان ملاحظات ماركس وانغلز تصبح اكثر وضوحا بشدة حين يتعلق الامر برفض الاتهامات البورجوازية التي تدعي ان الشيوعيين يريدون جعل المرأة مشاعا .

ويشير ماركس وانغلز بسخرية الى ان البورجوازيين الذين يرون في المرأة وسيلة انتاج فحسب يستنتجون من

الكلام الشيوعي عن الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ان
هذا الكلام يطال المرأة ايضا .

وأشار انغلز في كتاب « أصل العائلة والملكية الفردية
والدولة » الذي كتبه بعد سنوات من البيان ، السى ان
المجتمعات البدائية عرفت نوعا من الزواج الجماعي وان
الزواج الفردي لم يظهر سوى مع الملكية الخاصة وانقسام
المجتمع الى طبقات ، او بكلمة اخرى عندما امتلكت فئة
اجتماعية الاملاك المشاع مثل الارض ، والماشية ،
والمزروعات ، الخ . . فقد اصبح من الضروري عند ذلك
وجود مؤسسة قادرة على ضمان شرعية الورثة للتمكن من
تسليمهم الممتلكات .

والواضح ان العائلة القائمة على الزواج الفردي
تليبي الشروط المطلوبة . ويؤدي هذا الى ان تتبع المرأة
لرجل واحد يمكنها ان تؤمن له الورثة .

ويؤكد ماركس وانغلز في البيان على ان المجتمعات
الطبقية بما فيها المجتمع البورجوازي تعرف مؤسسة
البغاء بموازاة الزواج ، وذلك عبر وضع مجموعة من
النساء تحت التصرف العام لاشباع الرغبات الجنسية
لبعض الرجال مقابل مبلغ من المال . ان البورجوازيين
خبثاء الى الدرجة التي يستهولون فيها فكرة تحرر النساء
من نير الزواج البورجوازي في حين انهم لا يحركون ساكنا
ضد البغاء الذي يحول المرأة الى سلعة .

يقول ماركس وانغلز في البيان ان البورجوازيين بحجة امتلاكهم للنقود يعتبرون ان من حقهم التصرف بنساء وبنات العمال ويستخدمون سلطة المال المفسدة لشراء اخلاق النساء البروليتاريات . ويحلل ماركس وانغلز بالطبع العلاقات ضمن اطار العائلة البورجوازية ويكتشفان انه ليس نادرا قيام الازواج بتبادل زوجاتهم اي عمليا ممارسة مشاعية المرأة بالفعل .

ومن المفيد الاشارة الى ان ماركس وانغلز لا يدعيان، في البيان الشيوعي، تقديم صورة عن العائلة في المجتمع الاشتراكي بل يكتفيان بالشرح انه مع الغاء الملكية الخاصة وغياب العائلة البورجوازية ستفقد العلاقات بين الرجل والمرأة الطابع المرنكتيلي الذي يفسد كافة العلاقات البورجوازية .

البيان الشيوعي هو اول برنامج للشيوعيين ، وهم يفضلون فيه التمييز الحاصل ضد المرأة في المجتمع الرأسمالي ويعلنون انهم سيناضلون بلا هوادة من اجل تحرير المرأة .

وقد كان من اول اهتمامات لينين القائد العبقري لاول ثورة اشتراكية ، هو انخراط المرأة بفعالية في بناء المجتمع الجديد وتحررها من كل معوقات واحكام الماضي . وقد برهن التاريخ ان الثورة الاشتراكية وحدها يمكنها ، بالغائها نظام الانتاج البورجوازي والملكية

الخاصة ، خلق الشروط الضرورية لضمان التحرر الكامل للمرأة حتى تشارك في الانتاج ضمن شروط متساوية مع الرجل وكى تكف عن كونها ، في اطار الزواج ، مجرد موضوع متعة ، وحتى تصبح كائنا اجتماعيا يتمتع بالاحترام الكامل كإنسان .

لن تحصل المرأة في النظام الرأسمالي سوى على مكتسبات جزئية ومحدودة متعلقة بتحسين شروط عملها او دورها في اطار العائلة او الزواج . ولذلك يعتبر الشيوعيون ان الانضال لتحرير المرأة يندرج ضمن الانضال البرولييتاري العام للتحرر من نير الرأسمال .

٩ — مفهوم الحرية في « البيان الشيوعي »

في مقدمة « اسهام في نقد الاقتصاد السياسي » يلخص ماركس جوهر المادية التاريخية بهذه الكلمات : « يحدد نمط انتاج الحياة المادية عملية الحياة الاجتماعية ، والسياسية والفكرية بصورة عامة . وليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم ، بل على العكس ان وجودهم هو الذي يحدد وعيهم » .

تشكل هذه الموضوعية الدليل النظري والمنهجي العلمي الذي يسمح لنا بتحليل القيم ، والمفاهيم ، الخ . . . تحليلا صحيحا . وهي تعلمنا بادئ ذي بدء ان لا وجود للمفاهيم « الخالصة » ، فالمفاهيم ايضا مشروطة تاريخيا ، ومن المهم اذن وضعها في اطار التشكيلة الاجتماعية التي تناسبها وحسب درجة التطور الاقتصادي والاجتماعي لهذه التشكيلة .

فالمفاهيم ، اذا ، غير محددة بنمط الانتاج فقط بل
ايضا بالبنية الفوقية السياسية ، والايديولوجية
وضمن هذا الاطار يمكن الكلام عن الحرية ، العيانية
باستمرار وعن مفهوم الحرية .

ليست الحرية مجردة ولا يمكن فصلها عن التشكيلات
الاقتصادية والاجتماعية ، فثمة حرية عبودية ، او اقطاعية ،
او بورجوازية . فطالما بقي نظام الطبقات ، وطالما بقي
المجتمع منقسما الى طبقات ، فان الحرية ستبقى اساسا
حرية طبقة اجتماعية محددة ، حرية الطبقة الحاكمة .
وستتمكن هذه الطبقة بفضل عمليات القمع والتضليل
الايديولوجي من فرض حريتها في الحركة وسيطرتها ،
ومفومها للحرية على الطبقات والفئات الطبقيّة الاخرى .

وهكذا فان « اعلان حقوق الانسان والمواطن » عام
١٧٨٩ يحدد حرية كل فرد باعتبارها « مساواة جميع الافراد
امام القانون » .

وترتكز هذه الحرية تحديدا على وجود انسان مجرد .
ان المبدأ القائل بأن كل البشر متساوون امام القانون
البورجوازي هو مبدأ خاطيء منذ البداية باعتبار انه ليس
لكل البشر وسائل العيش نفسها ، والمقدرة الشرائية نفسها ،
والمقدرة على الدفاع الشرعي او المادي نفسها والثقافة
نفسها . ولكن من الذي سن قوانين الحقوق في المجتمع
البورجوازي ان لم يكن البورجوازيون انفسهم ؟ في النظام

الرأسمالي هل يتمتع من لا يملك أية وسيلة انتاج بالحرية نفسها التي يتمتع بها من يملك مثل هذه الوسيلة ؟
هل يمكن القول ان الحرية هي بالنسبة للمستغل -
- بكسر الغين - والمستغل - بفتحها - ، للامى والمثقف ؟
وهل يمكننا باختصار ، التكلم عن الحرية نفسها للبروليتاري والبورجوازي ؟

تخفي الحرية البورجوازية طابعها الطبقي . وهي في الواقع حرية الطبقة البورجوازية فحسب ، حرية حركة الطبقة المسيطرة ضد بقية المجتمع ، وهذا الطابع التناقضي هو انعكاس التناقض الطبقي : تنقلص حرية البروليتاريا بقدر ما تزيد حرية البورجوازية ويقدر ما تزداد حرية البرجوازية تتحدد حرية البروليتاريا .

ليس بوسع البروليتاريا اكتساب حريتها سوى بانتزاعها تدريجيا من الحرية البرجوازية . وهكذا فبالنضال ضد الحرية المطلقة للصناعي باستخدام قوة عمل اي انسان بغض النظر عن سنه وجنسه وامكانياته ، امكن انتزاع تشريعات العمل في المناجم من اجل الاطفال ، وساعات العمل المحددة والقليلة من اجل المرأة ، الخ . . .
لقد اضطرت الطبقة العاملة الى النضال ضد البرجوازية من اجل انتزاع هذه الانتصارات . لقد عارضت الطبقة العاملة الحرية البرجوازية والا لما ازدادت حرية البروليتاريا تدريجيا على حساب

الحريات البورجوازية ، وليس الحرية البروليتارية ممكنة
الا بالغاء الحرية البورجوازية ، وبالتالي الغاء قاعدتها
الفعلية : النظام البورجوازي .

كان ماركس يقول عن الدستور الفرنسي لعام ١٨٤٨ :
« تتضمن كل فقرة من هذا الدستور نقيضها الخاص . ففي
المتن : الحرية وعلى الهامش : الغاء هذه الحرية . وحتى
عندما يعترف الدستور البرجوازي بمبادئ الحرية
والمساواة والاخوة فان جهاز السلطة يقمع التطلعات
الشعبية التي تهدد استقرار النظام » .

وفي كوبا مثلاً لم يتأخر البورجوازيون عن دوس
دستور ١٩٤٠ بأرجلهم ، وذلك عندما لاحظوا ان التشريعات
الملحقة به ستسمح بتجسيد التدابير الاجتماعية التي يقترحها
ولو ادى ذلك الى بلبلة الوضع القائم . وهكذا تم الغاء حتى
الحريات البورجوازية التقليدية .

يؤكد ماركس في البيان الشيوعي ان البورجوازية
دمرت العلاقات الاقطاعية ، البطيركية ، وانها احلت محل
كافة الحريات المكتوبة حرية ملموسة واحدة ، حرية
التجارة . لقد مزقت البورجوازية القناع العاطفي الذي كان
يغلف العلاقات على مستوى العائلة لتحولها الى مجرد
علاقات مالية . وحولت البورجوازية العمال الى جنود
صناعيين . فالحرية الوحيدة المقبولة لدى البورجوازية هي
الحرية المؤسسة على الحق في الملكية . ثمة تماه بين

الحرية البورجوازية وحق الملكية في المجتمع البورجوازي
رغم ان حرية الملكية غير متوفرة بالنسبة للاغلبية الساحقة
من السكان ، ورغم انها حرية الاقلية المستندة الى غياب
حرية بقية المجتمع .

لا تمثل « الحريات السياسية » ، التي تفتخر بها
البورجوازية ، سوى حرية العمل السياسي البورجوازي ،
وهي تكون غير محدودة في البداية غير انها تتحدد شيئاً
فشيئاً بفعل الضغط البروليتاري المتزايد وبفعل ظهور
المنظمات الحزبية البروليتارية التي تجيء لتدمر التناغم
البورجوازي . ان وجود عدة احزاب على الساحة
السياسية في الدولة البورجوازية هو تعبير « سياسي » اكد
عن الانقسام الى فئات اجتماعية ، الى طبقات اجتماعية .

ويشكل الحق « العام » في الانتخاب ، والانتخاب
البرلماني بعض امجاد النظام البورجوازي . وذلك ان
البورجوازية لم تتنازل عنهما مجاناً بل كانا ثمرة نضال
الطبقات المحرومة والساعية وراء احسد اشكال التعبير
السياسي ، باعتبار انه كسان محكوما عليها اقتصاديا
الاستئناق ضمن النظام . وتؤدي الممارسة الانتخابية ،
عوضاً عن تدعيم حقوق الاغلبية ، الى التناقض التالي :

يجري الدفاع عن حقوق الاغلبية ، حتى في الانظمة
البرلمانية الاكثر كمالات ، من قبل عدد محدود من الممثلين .
في حين يدافع عن الاقلية عدد غير محدود من الممثلين .

ان الحق العام في الانتخاب مؤسس بالطبع على المساواة الشهيرة بين البشر في المجتمع البورجوازي ، هذه المساواة التي لا يؤمن بها احد حتى المنظرين البورجوازيين . وبقدر ما يملك المرء سلطة سياسية بقدر ما تكون حريته السياسية اكبر ، والعكس بالعكس ، فغياب السلطة الاقتصادية ضمن النظام الرأسمالي يؤدي الى السكوت السياسي .

بالاضافة الى ذلك يفرض الرأسماليون ، اسياذ وسائل التربية والاتصال ، القيم البورجوازية كما لو انها ملازمة لكل المجتمع . وتحاول البورجوازية ان تقنع الجميع بأن افكارها كطبقة حاكمة هي الافكار المثلى بالنسبة للمجتمع ككل .

ويدافع المجتمع البروليتاري عن حريته على اعتبار انها حرية الاغلبية . ولكي يصل الى هذه الحرية ، يدمر حرية الاستغلال بالغائه الملكية الفردية لوسائل الانتاج . وهو يدمر الحرية التي تسمح للبورجوازية باخضاع المرء لاسباب تتعلق بسنه او جنسه او عنصره او ثقافته وهو يدين الفردية البورجوازية الصغيرة . باختصار انه يلغي « الحرية » التي تتدبرها الاقلية البورجوازية لقلب السلطة الثورية لتحالف العمال والفلاحين .

يرى المجتمع البورجوازي ان الغاء « حريته » يعادل

اختفاء كل اشكال الحرية ، كما ان اختفاء ثقافته يمثل
اختفاء كل انواع الثقافة •

ويرى ماركس في البيان الشيوعي ان « الحرية التي
تشكو البورجوازية خسارتها هي بالنسبة لاجلبية البشر
الشروط التي تحولهم الى الات » ••

ان الثورة الاشتراكية هي القطع الراديكالي والتقدمي
مع علاقات الانتاج البورجوازية ، وهي تقطع اذا تدريجيا
مع الافكار التقليدية المتناسبة مع التشكيلة الاجتماعية -
الاقتصادية للنظام الرأسمالي •

اما نحن الشيوعيين فانا لا نرى الحرية الا من منظور
طبقي : حرية من ؟ حرية المستغلين ام المستغلين ؟ اننا
كشيوعيين نناضل بالطبع في سبيل حرية المقيهورين •



١٠ — المادية التاريخية :

الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي

لا يتحدد وضع البشر بوعيهم • بل بالعكس فإن
الوضع الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي •

تشكل هذه الموضوعة نقطة انطلاق المادية التاريخية
او المفهوم المادي للتاريخ الذي صاغه ماركس في المقدمة
الشهيرة لكتابه « اسهام في نقد الاقتصاد السياسي »
(١٨٥٩) •

كان العلم التاريخي الجديد نتاج ابحاث مطولة قام
بها ماركس وانغلز وتوصلا بطرق مختلفة الى النتائج عينها •
يخضع التطور الاجتماعي والتاريخي لقوانين موضوعية
ناجمة عن الشروط المادية الاجتماعية نفسها والافكار

والمؤسسات السياسية والاجتماعية لا تشكل السبب الاصيلي والحاسم . بل هي الانعكاس ، في وعي البشر ، للشروط المادية للوجود الاجتماعي . ان هذا المبدأ محدد في الكتابات الاساسية لمؤسسي الماركسية .

باشر ماركس وانغلز بصياغة المفهوم الجديد اساسا في « الايديولوجية الالمانية » (١٨٤٥) ووجد هذا المفهوم تطبيقا له في بؤس الفلسفة (١٨٤٧) والبيان الشيوعي (١٨٤٨) وصراع الطبقات في فرنسا و ١٨ برومير لويس بوناپارت (١٨٥٣) الخ .

يشكل المفهوم المادي للتاريخ النظرية العلمية الوحيدة التي تقدم تفسيرا صحيحا للتطور الاجتماعي . للانتقال من نظام اقتصادي الى آخر . وهي تقدم وسيلة علمية للتحليل الصحيح للظواهر الاجتماعية ، كتاريخ كل بلد وكل الشعوب .

وبفضل المادية التاريخية كفت الاشتراكية عن كونها طوباوية لتتحول الى علم . وانتقلت من ميدان الحلم الى ميدان الواقع وظهرت كحقيقة ناصعة .

المادية التاريخية

والمثالية التاريخية

تختلف المفاهيم الفلسفية بصددها اذا كان الواقع هو الذي يحدد الوعي ام العكس .

تعتبر المادية ان الواقع الموضوعي الفعلي ، الطبيعة التي تحددها كمادة لها ، مستقلة عن الوعي والاحاسيس الانسانية . وبالتالي فان الفكر ، والآراء والوعي هي نتاج للمادة وانعكاس لها ، بهذا القدر او ذلك .

من هذا المنظور فالعالم والطبيعة سابقان على الوعي .

اما بالنسبة للمثالية فالآراء والفكر – اي الوعي – تسبق ما اسميناه المادة وتنتج عنه . حسب المفهوم ينبثق العالم من الارادة او الذكاء الموجود خارج العالم . والاشياء لا تكون موجودة الا في الاحاسيس والتجربة الانسانية ، فالواقع الموضوعي ينشأ ويتطور بالعلاقة مع الفكرة ، والفكرة هي التي تحدد هذا الواقع .

تستند المادية الى العلم وتتطور معه ، اما المثالية فتفترض مفهوما صوفيا وتبقى على هامش العلم .

ماركس وانغلز اللذان طبقا المادية على دراسة العلاقة بين الواقع والوعي توصلا الى خلاصة مؤاذهما ان الواقع الاجتماعي ، اي الظروف المادية الاجتماعية تحدد الوعي الاجتماعي (الآراء السياسية ، مفهوم الحق ، الفن ، الفلسفة ، الدين ، الايديولوجية) .

لم يطبق ماركس وانغلز ميكانيكيا على دراسة المجتمع ، القوانين المستنتجة من دراسة الطبيعة ، رغم ان

المجتمع الانساني جزء لا يتجزأ من الطبيعة . فالطبيعة
محكومة بقوى عمياء ، عفوية ، غير واعية في حين ان
المجتمع مؤلف من بشر يملكون وعيا و ارادة وذكاء . ان
قوانين الطبيعة مشروطة بظواهر عفوية في حين ان التطور
الاجتماعي مرتبط بالانسان .

يستنتج المثاليون خطأ ان البشر يقررون تاريخهم
حسب رغبتهم الحرة وهم يقتنعون بأن المجتمع البشري ،
يتخلص من المشاعية البدائية بفضل القرار الذكي لبعض
الافراد ، وان فترة العبودية هي نتاج ارادة شخصية وان
الاقطاعية عائدة الى رأي بعض الاشخاص . وان
الرأسمالية هي تطبيق تصميم صاغه ذكاء خارق .

لا يصمد اي من هذه الادعاءات للتحليل . لماذا اتخذ
هؤلاء الافراد هذه القرارات وليس غيرها ؟ لماذا صاغوا
وطبقوا هذا التصميم او ذاك ؟ ما الذي حدد ارادتهم ؟ هذه
كلها اسئلة تبقى بلا جواب اذا انطلقنا من هذا التحليل
المثالي .

ان البشر . الجماهير . الشعوب هي بالطبع صانعو
التحول التاريخي والتطور الاجتماعي غيسر ان التحول
والتطور محكومان بقوانين اجتماعية موضوعية نابعة من
الشروط المادية لوجود المجتمع نفسه .

وقد برهن ماركس وانغلز بتحليلهما لقوانين التطور
الاجتماعي ، على الضرورة التاريخية للشيوعية ، وللوصول

الى هذا الهدف من المؤكد ان دور الجماهير حاسم ولهذا فقد
وضعا في متناول الطبقة العاملة وعمال العالم اجمع النظرية
العلمية التي ستسمح لهم بالانتصار .

2

3

١١ - الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي

ماذا يعني ، حسب المفهوم المادي للتاريخ ، الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي ؟
الواقع الاجتماعي هو مجموعة ظروف الحياة المادية التي لا يمكن تصور المجتمع الانساني بدونها .

ما هي هذه الظروف ؟

العامل الحاسم في تطور المجتمعات

انها في الدرجة الاولى البيئة الجغرافية التي تحيط بالمجتمع والتي يستخرج منها البشر بواسطة العمل وسائل استمرارهم .

البيئة الجغرافية او الطبيعية تؤثر بقدر ما على التطور الاقتصادي والاجتماعي . وفي الوقت السدي تلعب فيه

مصادر العيش الطبيعية (خصوبة الارض ، وفرة الصيد في الغابات والبحار ، الخ) دورا هاما في المراحل الاولى للتطور الاجتماعي فان المصادر الطبيعية للعمل (الاخشاب ، المعادن ، البترول ، الشلالات ، مجاري المياه الصالحة للملاحة ، الخ) هي اكثر اهمية في مراحل التطور العليا .

هل يعني هذا ان التطور وبنية وسمات المجتمع مرتبطة بالظروف الطبيعية ؟ ان انصار الاتجاه الجغرافي في علم الاجتماع يقولون نعم . في حين ان الوقائع تكلفت باثبات خطأ ذلك . فالبيئة الجغرافية تكاد لا تتغير طيلة عشرات آلاف السنين في حين ان التحولات الاجتماعية تتم دائما بشكل اسرع . لم تتغير جغرافية اوروبا الا قليلا في الثلاثة آلاف سنة الاخيرة ومع ذلك فقد اختفت المشاعية البدائية واختفى الاقطاع وقبله العبودية وبدأ النظام الرأسمالي في الاختفاء في القسم الشرقي من القارة .

تشكل كثافة السكان اذن احد ظروف الحياة المادية . ومن غير المشكك به قدرة كثافة السكان على تأخير او تسريع التطور الاجتماعي لكن ذلك ليس عاملا حاسما او اوليا في تطور المجتمع . فليس من علاقة مباشرة بين كثافة السكان والنظام الاقتصادي والاجتماعي . فبلجيكا مثلا حيث نسبة السكان ٢٦ مرة اكثف من الاتحاد السوفياتي لا تملك على الاطلاق نظاما اجتماعيا متقدما مثل تقدم النظام السوفياتي .

يعتبر بعض المدافعين عن الاتجاه البيولوجي ان كثافة السكان تجدد التطور الاجتماعي (سبنسر) في حين يؤكد البعض الآخر ان هذه الكثافة بالضبط تعيق التطور (مالتوس) وتسبب البطالة والجوع والحروب . . . ويقف (المالتوسيون الجدد هذه الايام الى جانب تدابير الحد من الولادة ويعتبرون ان الآفات والحروب امر جيد في حين ان الطب والصحة العامة واللقاحات ضرور تساهم في النمو الديموغرافي (السكاني) .

بعد ان اسبعدنا العامل الجغرافي وكثافة السكان كعاملين محددين للبنية الاجتماعية وللانتقال من نظام اجتماعي الى آخر ، يجب علينا التساؤل عن العامل الذي يحدد التطور والتحول والانتقال من نظام اجتماعي الى آخر ؟

تبرهن المادية التاريخية ان العامل الحاسم هو طريقة الانتاج او نمط انتاج السلع المادية . يستخدم البشر الذين ينتجون الخيرات وسائل الانتاج بحكم التجربة التي اكتسبوها والعادات . وهم العامل الحاسم في عملية الانتاج المادي .

تقول المادية التاريخية بأن مفهوم نمط الانتاج يساوي وحدة القوى المنتجة وعلاقات الانتاج .

والقوى المنتجة هي وسائل الانتاج التي يعود اليها

انتاج الخيرات زائد البشر الذين ينتجون بالاستناد الى
تجربة معينة والى عادات في العمل .

اما علاقات الانتاج او علاقات الملكية فتنشأ عن
البشر اثناء عملية الانتاج . وهي علاقات قائمة خارج ارادة
البشر . وقد تميزت هذه العلاقات منذ اندثار البدائية حتى
تشديد الاشتراكية باستغلال الانسان للانسان باعتبار ان
الاكثرية محرومة من وسائل الانتاج وخاضعة للذين
يملكونها .

التحولات الحادثة في نمط الانتاج محكومة بالتحولات
الحاصلة ضمن القوى المنتجة التي هي العامل الاساسي في
تحول الانتاج . عندما تتحول القوى المنتجة تتحول علاقات
الانتاج ايضا ونمط الانتاج بالتالي والنظام الاجتماعي
باسره .

ومع كل نمط انتاج يتناسب نمط من المجتمع . يقول
ماركس « ان الطاحونة تعطينا مجتمع الاسياد الاقطاعيين ،
في حين تعطينا آلة البخار مجتمع الرأسماليين الصناعيين » .
الواقع الاجتماعي هو اذن مجموعة ظروف الحياة
المادية للمجتمع وهو قبل كل شيء نمط انتاج الخيرات
المادية .

الوعي الاجتماعي

الوعي الاجتماعي مفهوم يتضمن بمعناه العريض

المفاهيم السياسية والاخلاقية والقانونية والدينية والفنية والفلسفية وغيرها من المفاهيم الاجتماعية والمعارف العلمية بما فيها المتعلقة بالطبيعة وكذلك الخصائص القومية وعقلية مختلف الشعوب والامم وسيكولوجية الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الطبقة .

بكلمة اخرى . يتضمن الوعي الاجتماعي كل ظواهر الحياة الروحية في مجتمع معين .

تعلمنا المادية التاريخية ان واقع البشر الاجتماعي - اي شروط الحياة المادية - هو الذي يحكم وعيهم الاجتماعي : افكارهم ، آراءهم ، احكامهم ، عقليتهم ، الخ . وعندما تؤكد المادية التاريخية ان الوعي الاجتماعي انعكاس للواقع الاجتماعي فانها لا تعتبر الوعي مجرد انعكاس سلبي ، بسبل عنصرا فاعلا يؤثر على الواقع الاجتماعي والنظام الاقتصادي والاجتماعي . وان اشكاله المختلفة (اخلاق ، ديانة ، فلسفة ، علوم اجتماعية ، الخ) تؤثر بعضها على بعض .

من جهة اخرى ، يملك الوعي الاجتماعي وتجلياته المختلفة قوانين خاصة لتطوره . ففي المراحل الاولى من المجتمع الانساني ، في ظل نظام المشاعية البدائية تكون علاقات التبعية بين ظواهر الوعي ومجموعة ظروف الحياة المادية ، واضحة ومباشرة تقريبا . فمفهوم الملكية الفردية

غير موجود وكل اشكال الوعي المحدودة عائدة الى الانتاج
والى الحصول على الخيرات الضرورية لتأمينه .

ولكن فيما بعد ، مع الانفصال بين العمل اليدوي
والعمل الذهني وانقسام المجتمع الى طبقات بعد ظهور
الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، يظهر المثقفون الباحثون
عن تأمين استمرار الايديولوجية السابقة . كما يحاول ممثلو
الطبقات الاجتماعية اطلاق نظريات تناسب موقعهم
الاجتماعي . وهكذا يزداد تعقيد وتناقض الوعي
الاجتماعي .

أكد ماركس وانغلز ولينين ان المادية الجدلية والمادية
التاريخية - النظرية والمنهج العلمي للبروليتاريا الثورية -
رغم انها تستمد جذورها من العلاقات الاقتصادية الخاصة
بالرأسمالية والصراع الطبقي الملازم لها ، فانها لا تنبثق
مباشرة من هذا الواقع بل تركز على دراسات ومعارف
علمية عميقة .

يرفض لينين في كتابه « ما العمل » وبقوة النظرية
التحريفية حول العفوية فيما يتعلق بنشوء الوعي الاشتراكي
وذلك ان هذا معناه التخلي عن النضال في سبيل النظرية
الثورية .

اكتشفت المادية التاريخية ان اصل الافكار والنظريات
والمفاهيم هو من ظروف الحياة المادية للمجتمع ،

ورفضت المادية المبتذلة التي اقامت علاقة تبعية مباشرة بين الوعي والاقتصاد منكرة تعقد العملية الواقعية لنشوء وتطور الافكار والمفاهيم الاجتماعية . ورفضت المادية التاريخية ايضا المادية الميكانيكية او الانتهازية التي تعتبر ان الانتقال للنظام الاجتماعي الجديد قد يتم بدون صراع ولا نضال ايدولوجي وسياسي ولا حتى ثورة اشتراكية .

عندما تمتلك الطبقة الثورية علم المجتمع تمتلك اداة لصياغة سياستها ، وتوجيه نشاطها التغييري . ان النظرية الثورية ، العلمية ، الماركسية اللينينية قاعدة الوعي الاشتراكي ، المحددة بالشروط المادية للمجتمع المعاصر على الصعيد الكوني ، هي الدليل الذي يقود الى الاشتراكية ، الى الشيوعية . تمنح الماركسية اهمية فائقة للوعي وهذا ما يؤكد لينين بقوله : « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » .

١٢ — الانتاج — قاعدة حياة المجتمع

يحتاج البشر من اجل العيش الى الغذاء ، والكساء ، والسلع المادية الاخرى . وكان البشر ، في مرحلة ما قبل التاريخ اشبه بالحيوانات يستخرجون من الطبيعة ما يكفل لهم عيشهم . الا ان الانسان يختلف عن الحيوان في انه يستطيع ان يحصل بطريقة عقلانية على ما يحتاج اليه . لقد اصبح الانسان على ما هو عليه بفضل عمله الخاص ، الذي طور يديه ودماعه .

لا تقدر الطبيعة حاليا ان تمنحنا مباشرة السلع الضرورية كما كان الامر في المراحل الاولى من التاريخ . فبدون العمل لا نستطيع كفاية حاجتنا . بالاضافة الى ان الانسان خلق على مر آلاف السنين ، عددا غير متناه من الاشياء التي اصبحت ضرورية له في حياته . لقد غير بواسطة عمله ، البيئة التي يعيش فيها . بكلمة اخرى ،

يجب علينا ان ننتج الخيرات الضرورية ، والعمل هو الذي يؤمن ذلك لنا . واذنا توقف البشر عن العمل ، لاي سبب كان ، فان المجتمع يزول .

كل ما قام به الانسان للسيطرة على الطبيعة وتحسين مؤهلاته الجسدية والعقلية . ثم بفضل العمل . والنشاط الانتاجي للبشر هو القاعدة التي تركز اليها الروابط والعلاقات الاجتماعية ، اي المجتمع الانساني . ولذلك يمكن القول ان العمل «انسن» الفوضى الماقبل تاريخية وحولها الى مجتمع انساني .

العمل : مصادره وادواته

في كل عملية انتاج ، او عمل هناك ثلاثة عوامل رئيسية :

- ١ - عمل الانسان ،
- ٢ - مصادر العمل ،
- ٣ - ادوات العمل .

العمل هو النشاط الذي يحصل الانسان بواسطته ويكيف حاجات الطبيعة من اجل كفاية حاجاته .

العمل شرط ضروري لوجود الانسان وبدونه تكون الحياة الانسانية مستحيلة .

مصادر العمل هي الوسائل التي تتيح

للانسان امكانية العمل والتي يحولها ليحافظ على حاجاته المتعددة . ويمكن ان نذكر بين هذه المصادر الاشجار التي نقطعها في الغابات ، والمعادن المصنوعة في المصانع ، والخيوط المستخدمة في صناعة النسيج ، الخ .

ادوات العمل هي كل الادوات التي يستخلصها الانسان للتأثير على مصادر العمل وتحويلها .
وادوات العمل الاكثر اهمية هي ادوات الانتاج التي تضمن الوسائل الاكثر تنوعا والتي يستعملها الانسان في عمله ، بدءا من الادوات الحجرية التي استعملها الانسان البدائي وصولا الى احدث الآلات .

مصادر وادوات العمل تؤلف معا وسائل الانتاج وبدون قوة العمل لا تستطيع وسائل الانتاج انتاج اي شيء .
ويجب دمج وسائل الانتاج مع قوة العمل ليكون هناك عمل .

قوة الانتاج . علاقات الانتاج . انماط الانتاج

وقوة العمل هي طاقة الانسان على العمل ، ومجموع طاقاته الجسدية والذهنية التي تسمح له بانتاج الخيرات المادية . قوة العمل هي العنصر الفعال في الانتاج . فهي التي تخلق وتحرك ادوات الانتاج . ويسير تحسين ادوات الانتاج جنبا الى جنب مع تحسين طاقة عمل الانسان ، ومرونته ، وعاداته ، وتجربته .

ادوات الانتاج المستعملة لانتاج الخيبرات والبشر الذين يستعملونها للانتاج يشكلان معا قوى الانتاج في المجتمع . القوى المنتجة هي التعبير عن العلاقة بين الانسان والطبيعة ، عن سلطته عليها . والبشر ، والجماهير الكادحة ، هما اهم قوة بين القوى المنتجة .

كما قلنا ، فالقوى المنتجة تعبر عن العلاقة بين البشر والطبيعة ، وبالتحديد عن درجة تحكم البشر بالطبيعة . ولكن في عملية الانتاج لا يؤثر البشر على الطبيعة فحسب بل يقيمون علاقات فيما بينهم . كتب ماركس يقول ان البشر كي ينتجوا يدخلون في علاقات محددة وهم يدخلون ، من خلال هذه العلاقات فقط ، بعلاقة معينة مع الطبيعة ويتم الانتاج . ان العلاقات التي تقوم بين البشر في عملية الانتاج وتحويل وتوزيع الخيرات المادية ، اسمها علاقات الانتاج .

ان طابع علاقات الانتاج تقرره اشكال الملكية اي العلاقة بين البشر ووسائل الانتاج : الارض ، باطن الارض ، الغابات ، المياه ، المواد الاولية ، ادوات العمل ، الخ . وتقرر اشكال الملكية نسوع الصلة القائمة بين مختلف التجمعات الاجتماعية وعملية الانتاج . اذا كانت الملكية اجتماعية ، اي ان ملكية وسائل الانتاج تعود الى العمال ، فان علاقات الانتاج تكتسب طابعا تعاونيا حميما يسوده التعاون المتبادل بين العمال كما في النظام الاشتراكي . واذا كانت الملكية خاصة ، اي ان وسائل الانتاج تعود الى

مجموعة قليلة من المستغلين (بكسر الغين) فإن علاقات الانتاج تتميز بالسيطرة والخضوع وهذه سمة مميزة للرأسمالية •

ويرتبط توزيع نتاج العمل بشكل ملكية وسائل الانتاج • فإذا كانت تابعة للمستغلين (بكسر الغين) فإن توزيع الخيرات يتم لصالح المستغلين ، الساعين للثراء ليس الا ، ولو على حساب مصالح العمال • وبالمقابل عندما تكون وسائل الانتاج ملكا للعمال فإن توزيع الخيرات يميل الى زيادة الانتاج وتحسين مستوى الحياة المادية والثقافية للجماهير •

تؤلف قوى الانتاج وعلاقات الانتاج معا نمط الانتاج • ونمط الانتاج هو العامل الاساسي في الواقع الاجتماعي ويشكل العامل الحاسم لظواهر المجتمع الاخرى •

ان نمط الانتاج ، اي الطريقة التي يجرى فيها الانتاج في فترة معينة ، هو المحرك الرئيسي للتطور الاجتماعي وتاريخ المجتمع هو قبل كل شيء تاريخ تطور الانتاج • تاريخ انماط الانتاج المتلاحقة حسب تطور القوى المنتجة •

١٣ — القاعدة الاقتصادية والبناء الفوقي

القاعدة الاقتصادية والبنية الفوقية

ان مفاهيم القاعدة الاقتصادية والبنية الفوقية هي مفاهيم اساسية في نظرية المادية التاريخية • وهي تعبر في الواقع عن العلاقة بين نظام اقتصادي ما والافكار والمؤسسات التي تميزه • ولهذا نرى هذه المفاهيم في كل الكتابات الماركسية حول النظرة المادية للتاريخ وبالتحديد في مقدمة ماركس لكتاب « اسهام في نقد الاقتصاد السياسي » •

يرى ماركس ان القاعدة او البنية الاقتصادية مؤلفة من مجموع العلاقات الانتاجية • بكلمة اخرى تشمل القاعدة العلاقات الاقتصادية القائمة بين البشر في عملية

الانتاج واشكال ملكية وسائل الانتاج ، والعلاقات الاقتصادية بين مختلف الطبقات الاجتماعية واشكال التوزيع والتبادل التابعة لاشكال الملكية .

لمعرفة القاعدة الاقتصادية لبلد في فترة محددة يكفي طرح الاسئلة التالية : من يملك وسائل الانتاج ، من يملك الانتاج؟ ما هي الروابط المادية بين مختلف الفئات البشرية المتدخلة في عملية الانتاج ؟ بأي شكل يجري توزيع وتبادل استهلاك الخيرات المنتجة ؟

البنية الفوقية

يبرهن ماركس انه على قاعدة البنية الاقتصادية تقوم البنية الفوقية السياسية والحقوقية التي تتناسب معها اشكال من الوعي الاجتماعي . وبكلمات اخرى تصدد علاقات الانتاج القائمة طبيعة المؤسسات والافكار المسيطرة في بلد ما في لحظة معينة . وتشمل البنية الفوقية الدولة مع الجيش والمحاكم والجسم التشريعي واجهزة الامن والمؤسسات الاخرى المكلفة بقمع الطبقات المحرومة ، والقانون وكل المفاهيم الحقوقية والاحزاب السياسية والافكار التي تدافع عنها ، والكنيسة ومعتقداتها الدينية ، والصحافة ، والراديو ، والسينما ، والمسرح وبقية المؤسسات الاجتماعية وكذلك العوامل الاخرى التي تمارس تأثيرا على الايديولوجيا .

الطبيعة المتناقضة للقاعدة والبنية الفوقية

تؤكد الايديولوجية الماركسية ان العلاقات الاقتصادية والايديولوجية للطبقة الحاكمة ، في مجتمع طبقي ، تكون مسيطرة دون ان تكون العلاقات الوحيدة الموجودة . وتتجلى مصالح وافكار الطبقات المهيمنة والمستغلة (بفتح الغين) في مواجهة هذه العلاقات . بالاضافة الى ذلك يصعب وجود نموذج قائم على نمط وحيد من علاقات الانتاج .

أي انه في مجتمع معين ، كوبا في اواسط القرن التاسع عشر مثلا ، تتعايش مختلف الاشكال من العلاقات الاقتصادية . وهذا « المجموع من العلاقات الانتاجية » تشكل منه القاعدة الاقتصادية .

ولكن العلاقات الانتاجية ، على رغم الاختلاف فيما بينها ، تحتوي على عاملين اساسيين : المستغلون (بكسر الغين) والمستغلون (بفتح الغين) .

ولهؤلاء مصالح متناقضة تتجلى عبر صراع طبقي يتزايد حدة . صراع العبيد ضد الاسياد ، الفلاحين الفقراء ضد كبار الملاك ، القوى الجديدة ضد القوى القديمة التي ترفض الاندثار .

لهذا نقول ان للقاعدة الاقتصادية طبيعة متناقضة . وتناقضات القاعدة تنعكس على البناء القومي . وفي

مواجهة افكار ومؤسسات الطبقة المسيطرة ، تظهر
الايدولوجية والمؤسسات التي تلبي مصالح الطبقات
المستغلة (بفتح الغين) •

وهكذا ، فان للبناء الفوقي طبيعة متناقضة مثله
كمثل القاعدة الاقتصادية •

التاريخ كتتابع للتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية

اتيح لنا سابقا ان نحدد نمط الانتاج ، اي التفاعل الجدلي بين
قوى الانتاج وعلاقات الانتاج • وشرحنا كيف يشكل مجموع
علاقات الانتاج قاعدة او بنية المجتمع • وقد كتب ماركس
بهذا الشأن في مقدمة « اسهام في نقد الاقتصاد السياسي » :
« يشكل مجموع علاقات الانتاج البنية الاقتصادية
للعمل ، القاعدة الحقيقية التي ترتفع فوقها بنية فوقية
سياسية وحقوقية • • » •

وهكذا حدد ماركس البنية الفوقية بالنسبة الى قاعدة
المجتمع • وفي الواقع ليست قاعدة المجتمع وبنيتها الفوقية
مفاهيم معزولة بل مصطلحين متفاعلين بشدة •

وعلى ضوء هذا الشرح تتحد التشكيلة الاقتصادية
والاجتماعية لمجتمع ، محدد تاريخيا ، بنمط انتاجها وبنيتها
الفوقية وافكارها والمؤسسات القائمة على قاعدة مناسبة •

قال لينين ان الماركسية اطلقت مفهوم التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية انطلاقا من الطريقة التي تستخدمها المجموعة لانتاج وسائل حياتها ، سعت الماركسية لتحليل الرابط الموجود بين هذه الطريقة في الانتاج والعلاقات الناجمة عنها : يحدد نظام العلاقات هذا قاعدة المجتمع ، القاعدة التي ترتدي اشكالا سياسية وحقوقية واتجاهات محددة في الفكر الاجتماعي .

التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية في تاريخ الانسانية

عرفت الانسانية في تاريخها خمس تشكيلات اقتصادية واجتماعية : المشاعية البدائية . النظام العبودي ، الاقطاع ، الرأسمالية ، والاشتراكية . وقد قال انغلز مشيرا الى المراحل ما بعد المشاعية البدائية ، اي التشكيلات التي يتمثل فيها استغلال الانسان للانسان . « النظام العبودي هو الشكل الاول للاستغلال ، الشكل الذي يميز العالم القديم ، وبعده تجيء القنانة في القرون الوسطى ، والعمل المأجور في الازمنة المعاصرة . هذه هي اشكال الاستغلال الكبرى » . بهذه الطريقة يصنف انغلز التشكيلات الاجتماعية القائمة على انقسام المجتمع الى طبقات . ومجيء الاشتراكية يلغي كل اشكال استغلال الانسان للانسان .

تعكس المميزات الخاصة بمختلف التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية تطور كل المجتمعات الانسانية طيلة آلاف السنوات . وهكذا يظهر في البداية مجتمع غير طبقي ، ابدى ، غير متطور من ناحية القوى الانتاجية . وبعده المجتمع القائم على العبودية في النظام العبودي . وقد مرت اوربا كلها بهذه المرحلة ، ووصل النظام العبودي الى ذروته منذ حوالي الفي عام . وقد مرت غالبية شعوب القارات الاخرى بهذه المرحلة . وبقيت بعض آثار هذه المرحلة حتى اليوم لدى الشعوب المتخلفة . وكان الانقسام بين اصحاب العبيد والعبيد اول انقسام طبقي في التاريخ . وكان الطرف الاول لا يملك ادوات الانتاج فحسب - الارض والوسائل - بل ايضا المنتجين انفسهم .

بعد هذه المرحلة جاءت الاقطاعية وهي ايضا مرحلة عاشها الجميع تقريبا . وبدأ المجتمع مقسوما الى طبقتين : الاسياد والاقنان . وعرفت العلاقة بين البشر نوعا من التغيير : لقد كان اصحاب العبيد يعتبرون عبيدهم ملكية خاصة لهم وحقا منحهم اياها القانون . كان العبد حيوانا تابعا لملكه . مع الانتقال الى القنانة استمر القمع والتبعية الطبقية . لكن الفلاحين لم يعودوا ملكية للسيد الاقطاعي . غير ان هذا احتفظ رغم كل شيء بحق امتلاك نتاج عملهم وفرض خدمات اخرى عليهم . وبما ان وسيلة الانتاج الاساسية هي الارض ، ملكية السيد الاقطاعي ، فان القرن

كفلاح مرتبط بالارض لم يكن بوسعه الافلات من التبعية
الاقطاعية .

فيما بعد عملت الثورة الصناعية وتطور التجارة
والسوق العالمية والنظام النقدي على ظهور طبقة جديدة
داخل المجتمع الاقطاعي ، الطبقة الرأسمالية . وولدت
التجارة وتبادل السلع وسلطة المال سلطة رأس المال .

وهكذا اندلعت الثورات في العالم كله اعتبارا من
نهاية القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر وتم
الغاء الاقطاعية من كل البلاد الاوروبية الغربية واستبدلت
بالرأسمالية .

يشكل الذين يملكون الرأسمال والارض والمصانع
والمعامل في المجتمع الرأسمالي اقلية ضئيلة متحكمة
بنتاج عمل الامة كلها . وهم يجمعون ويستغلون جمهور
العمال والبروليتاريا الذين لا يملكون ما يبيعونه في سوق
العمل لتأمين استمرارهم سوى قوة عملهم .
وممع الانتقال الى الرأسمالية ينضم الفلاحون ، الذين
ظلمهم المجتمع الاقطاعي ، وباغلبيتهم الى صفوف
البروليتاريا في حين تصبح حفنة من الفلاحين الاغنياء اكثر
غنى ويستخدمون فلاحين آخرين عندهم ويشكلون
البورجوازية الريفية .

انضال الطبقة العاملة ، الطبقة الاكثر ثورية ،
المستندة الى القطاعات الاخرى الاكثر تعرضا للاستغلال ،

أخذة في الغاء التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية
الرأسمالية . ان المرحلة الحالية هي مرحلة الانتقال من
الرأسمالية الى الاشتراكية وتتميز هذه المرحلة الاولى من
الشيوعية بشكل خاص بديكتاتورية البروليتاريا باعتبارها
شكل ضمان سلطة الطبقة العاملة ، وبالغاء الملكية الخاصة
لوسائل الانتاج وهكذا تخلق الاسس للالغاء التدريجي
للطبقات وبالتالي للدولة التي تصبح مهمتها بعد ذلك ادارة
الخيرات لا حكم الاشخاص .

بالغاء استغلال الانسان للانسان تقدم الاشتراكية
الامكانيات الانتاجية والتطور الضروري في التشكيلة
الاقتصادية الاجتماعية الجديدة من اجل كفاية الضرورات
المتنامية باستمرار .

١٤ — ماهي الطبقات الاجتماعية ؟

في عملية انتاج السلع المادية، تقوم علاقات خاصة بين ملاكي وسائل الانتاج والمنتجين المباشرين اي العمال • ويستغل ملاكو وسائل الانتاج اولئك الذين لا يملكون اية ملكية •

المنتجون ومالكو وسائل الانتاج

في النظام العبودي مثلا لم يكن السيد مالكا للارض ووسائل الانتاج فحسب بل ايضا للبشر الذين يعملون في الارض وفي بواخر الاسياد وفي خدمتهم • وكان مالك العبيد يعتبر هؤلاء البشر كمجرد أدوات عمل ولهذا كان يرغمهم على العمل حتى ينهكهم بدون ان يعطيهم ما يأكلونه سوى ما هو ضروري فقط لابقائهم على

قيد الحياة دون أن يسمح لهم الا بالراحة الضرورية
لاستعادة بعض النشاط من أجل عمل اليوم التالي .

وفي المجتمع الاقطاعي كان الملاك العقاري الذي
يسيطر على وسيلة الانتاج الرئيسية ، الارض ، يمنح
الفلاحين قطع اراض صغيرة شرط ان يبادلوه ذلك بالعمل
سخرة في ارضه التي يحتفظ لنفسه بكل الحقوق عليها .
وكانوا لا يتناولون اي مقابل ويعيشون من المحصول
القليل الذي ينتجونه في ارضهم .

وفي النظام الرأسمالي يضطر العمال لبيع قوة
عملهم للرأسماليين حتى يتمكنوا من العيش . ويدفع
هؤلاء لهم اجورا . ويحصلون بفضل عمل العمال على
ارباح يوظفونها لتحقيق المزيد من الارباح واذا ما احتج
العمال يجيبهم رب العمل : « لماذا تشتكون ؟ لقد
استخدمتكم وانا ادفع لكم مع اني مالك هذا المصنع .
واذا لم يعجبكم العمل هنا فاذهبوا الى مكان آخر » . ولكن
بما ان العمال يعرفون ان هذه الظروف موجودة في كل
مكان فانه لا يبقى لهم سوى الاستمرار في العمل في حين
يزداد مالک وسائل العمل ثراء على حسابهم .

في كل انظمة الانتاج ، حيث تكون وسائل الانتاج
في ايدي اقلية ضئيلة يسيطر ملاكو وسائل الانتاج على
عمل الغير ويستغلون العمال . ومع ذلك فان الاستغلال

لم يكن موجودا منذ الازل ، ففي التجمعات البدائية التي كانت تنتج ما يكفيها تماما للاستمرار لم تكن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج موجودة : بل كانت هذه الوسائل عائدة لكل المجموعة كما كانت ثمار العمل موزعة بالتساوي بين اعضاء المجموعة .

ولا يوجد في هذه المجموعات علاقات استغلال بل علاقات تعاون متبادل بين كل اعضاء المجموعة .

للاستغلال اذن اصل تاريخي محدد . وهو يظهر عندما تنجح مجموعة من البشر في الاستيلاء على وسائل الانتاج الرئيسية حارمة بذلك القسم الاكبر من السكان . ولهذا فان الاستغلال لن يزول الا بزوال الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لصالح الملكية الجماعية .

العلاقات الخاصة التي تقوم بين مالكي وسائل الانتاج والعمال . اي المنتجين المباشرين ، والتي هي تقررها ملكية وسائل الانتاج نسميها « علاقات الانتاج الاجتماعية » .

والعلاقات الاجتماعية المختلفة تؤدي الى نشوء فئات اجتماعية مختلفة وهذه اسمها « الطبقات الاجتماعية » .

تعريف الطبقات الاجتماعية

وما هو التعريف الذي يقدمه لينين للطبقات

الاجتماعية : « الطبقات الاجتماعية هي الفئات الواسعة من البشر المتميزة بالموقع الذي تحتله في نظام انتاج اجتماعي محدد تاريخيا ، وبالعلاقتها (المكرسة بواسطة القوانين في غالب الاحيان) بوسائل الانتاج ، وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبحصتها في الخيرات العامة ، الطبقات هي فئات من البشر يمكن لاحداها ان تمتلك عمل الاخرى نتيجة الموقع المختلف الذي تحتله في بنية محددة ، هي الاقتصاد الاجتماعي » .

لندرس عن كثب هذا التعريف :

اولا : يشير لينين الى ان « الطبقات الاجتماعية هي الفئات الواسعة من البشر المتميزة بالموقع الذي تحتله في نظام انتاج اجتماعي محدد تاريخيا » ويعني هذا ان الاشخاص الذين يلعبون الدور نفسه في الانتاج ينتمون الى الطبقة نفسها . ويتغير هذا الدور حسب المراحل التاريخية . وقد سبق الرأسماليين والعمال تاريخيا الاسياد والعبيد والاقطاعيون والاقنان .

ثانيا : يضيف لينين : ان الطبقات تتحدد « بعلاقتها (المكرسة بواسطة القوانين في غالب الاحيان) بوسائل الانتاج » . بكلمات اخرى ان الدور الذي يلعبه الافراد في الانتاج مرتبط بعلاقتهم بوسائل الانتاج . وتستمر هذه العلاقات الى حد بعيد بفضل النظام الحقوقي للمجتمع الذي يسمح للملاكين باستغلال العمال .

ثالثا : يقول لينين : ان الطبقات تتحدد ايضا
« بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل » .

اي ان هذه الفئات لا تتحدد فقط بعلاقتها بوسائل
الانتاج بل ايضا بالرقابة التي تمارسها على نظام الانتاج
(المصانع) فالرأسماليون ليسوا مالكي وسائل الانتاج
فحسب بل انهم يديرون هذه المصانع شخصا او بواسطة
ممثليهم في حين ان العمال على عكس ذلك لا يمارسون
رقابة على سير هذه المصانع ولا يقومون بغير العمل تحت
امرة المسؤولين والاداريين .

رابعا : يؤكد لينين : ان الطبقات يمكن التمييز
بينها وفق « حصتها في الخيرات العامة » . وهذا يعني
ان اهمية المداخل هي من العوامل التي تميز فئة عن
اخرى وان هذا التمييز يتعلق بالموقع الذي يحتله
الاشخاص في الانتاج .

ولهذا فان النتيجة التي يصل اليها لينين تشكل ادق
تعريف لمفهوم الطبقات الاجتماعية : « الطبقات هي فئات
من البشر يمكن لاحداها ان تستحوذ على نتائج عمل
الاخرى نتيجة الموقع المختلف الذي تحتله في بنية محددة
هي الاقتصاد الاجتماعي » .

١٥ — ماهي الدولة ؟

يقدم التحليل العلمي الذي صاغه ماركس وانغلز عن المجتمع الوسائل النظرية للطبقات الكادحة حتى تناضل في سبيل تحررها . وقد أدى تطبيق هذه النظرية ، بعد ان اغنتها عبقرية لينين ، الى انتصار أول ثورة اشتراكية في العالم .

ان احد الاسس الرئيسية في الماركسية هو المفهوم عن الدولة التي لا يمكن استخلاص جوهرها علميا الا بواسطة التحليل المادي الجدلي الذي يكشف عن طابعها التاريخي، وبنيتها ووظائفها . وكل نظرية لا تقوم على المفهوم الطبقي هي مجرد تأمل نظري وتقتصر على وصف العناصر الخارجية لتبرر وجود الدولة كظاهرة ضرورية وغير قابلة للاندثار .

لقد طور لينين النظرية العلمية حول الدولة باعتبارها أداة سيطرة طبقية ، وحلل عملية تكونها في المجتمع المعاصر وخاصة في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .

يؤكد ماركس على هذه الموضوعة عدة مرات . وهو يطرح المسألة في اعماله الاولى عبر القانون شارحا علاقاته بالاقتصاد وبالمجتمع بشكل عام .

ونجد في «بؤس الفلسفة» (ماركس) و«الايدولوجية الالمانية» (ماركس وانغلز) التباشير الاولى للافكار التي طورت فيما بعد في «البيان الشيوعي» المنشور عام ١٨٤٨ . وقد أدى تحليل الحالات التاريخية العيانية - خاصة تجربة كومونة باريس (١٨٧١) - الى اغناء مفهوم ديكتاتورية البروليتاريا بشكل خاص .

لم يستطع ماركس تحقيق مشروعه بتقديم دراسة اكثر عمقا عن الدولة ، هذه الدراسة التي كان يزمع نشرها كجزء أخير في كتابه «رأس المال» فتكفل انغلز بالامر في كتابه «أصل الاسرة ، والملكية الخاصة ، والدولة» الذي يشير في مقدمته الاولى عام ١٨٨٤ الى ان «الفصول اللاحقة هي بشكل من الاشكال تنفيذ لوصية .

لقد كان ماركس يود ان يطرح شخصا نتائج ابحاث مورغان على ضوء تحليله المادي للتاريخ وذلك بغية

أظهر الأهمية القصوى لهذه الأبحاث . وليس بوسع عملي إلا أن يسد جزئيا الثغرة التي لم يتمكن صديقي المتوفي من إنجازها : واني استعيد ، وقدر الامكان ، مقتطفات كان . هو قد أشار عليها في كتب مورغان وبعض الملاحظات النقدية التي املكها منه» .

يرى ماركس وانغلز أن الدولة هي وسيلة سيطرة طبقة على أخرى . والطبقة التي تملك وسائل الانتاج تستخدم وسائل القهر - قوى مسلحة ، سجون ، الخ - لاختضاع الطبقات الأخرى . ومهما كان شكل الدولة فإن جوهرها يبقى هو نفسه : العنف الطبقي .

برهن انغلز في كتابه «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة» كيف كانت المشاعية البدائية ترتكز الى الملكية المشتركة لوسائل الانتاج وتتضمن مجتمعا من غيسر طبقات . ويعود أصل الدولة الى ظهور الملكية الخاصة ، ونتيجتها اللازمة انقسام المجتمع الى طبقات متناقضة . ففي هذه الحالة تصبح سلطة الرأي العام ، أو السلطة الاجتماعية ، غير كافية لتأمين سيطرة الطبقة الحاكمة التي تظهر على المسرح السياسي . وهكذا فإن ظهور الدولة يشكل وجود الدولة دليلا على التناقض الداخلي في المجتمع وهو تناقض تبدو الدولة عاجزة عن حله . وفي الحقيقة ليست الدولة جهازا فوق المجتمع هدفه منع الطبقات من التهام بعضها البعض ، بل هي أداة السيطرة

الطبقة وهي ، بتحويلها هذه السيطرة الى قضية شرعية ، تتوصل الى استيعاب النزاعات الطبقة .

ويرى مؤسسو الماركسية ان الدولة ستستمر في الوجود طالما ان الطبقات موجودة مما يعني ان الدولة ستستمر في فترة الانتقال كما في اية فترة يكون فيها الصراع الطبقي موجودا لكن الدولة ، في فترة الانتقال ، أي الدولة البروليتارية ، هي جهاز مختلف لانها تعكس القاعدة الاقتصادية الجديدة التي تتم السيطرة على أساسها من قبل الطبقات الاكثر عددا وذلك لأول مرة في التاريخ .

عشية ثورة اكتوبر هوجمت النظرية الماركسية في الدولة من قبل البورجوازيين والتحريفيين الذين لم تكن مواقفهم مختلفة سوى شكل ، في حين كانت ملتقية فعلا عند قاسم مشترك واحد : الايديولوجية البورجوازية . ولقد حاربهم لينين انطلاقا مما اعتبره الماركسية السمة الاساسية في الدولة : العنف الذي تحتكره طبقة . واعاد تأكيد اطروحات ماركس وانغلز التي تعتبر التدمير العنيف للدولة البورجوازية أمرا ضروريا باعتبارها دولة تدافع عن مصالح الطبقة الحاكمة بفضل سيطرتها على القوات المسلحة والجهاز الحكومي . يجب اذا على الطبقة الجديدة أن تستأثر بهذه السيطرة لتحطم مقاومة المستغلين — بكسر الغبن — وتخلق الشروط الضرورية

للوصول الى الهدف التاريخي للبروليتاريا الغناء الطبقات ، وبالتالي الدولة نفسها .

وما ان نلغي الاسباب التي ولدتها حتى تصبح السلطة السياسية مجردة من أي سبب للاستمرار ويعيد المجتمع تنظيم الانتاج على قاعدة المشاركة الحسرة للمنتجين المتساوين .

لقد سمحت المساهمة الاساسية لماركس ، انغلز ، ولينين حول دور الدولة للثوريين بتطبيق استراتيجيات مناسبة لاستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية من أجل تشييد دولة ديمقراطية حقا ، الدولة الاشتراكية .

١٦ — الغاء الطبقات :

في الرسالة التي بعث بها الى صديقه ويديماير في ٥ اذار ١٨٥٢ أشار ماركس الى ما يعتبره مساهمته في نظرية الصراع الطبقي . فأكد « ان الصراع الطبقي يقود بالضرورة الى ديكتاتورية البروليتاريا » و اضاف « ان هذه الديكتاتورية نفسها ليست سوى انتقال نحوي الغاء كل الطبقات ، نحو مجتمع غير طبقي » .

يشكل نص ماركس هذا تكميلا حازما لكل من يجهل علماء الاجتماع البورجوازيون في البرهنة عليه ، وهو ان وجود الطبقات مسألة ابدية . لقد ظهرت هذه الطبقات في لحظة تاريخية معينة وكنتيجة لتطور قوى الانتاج ولظهور الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، وهي

مدعوة للاختفاء بسبب تطور المجتمع وحتى تفسح في المجال لمجتمع غير طبقي .

ان انقسام المجتمع الى طبقات متناقضة تستولي الواحدة منها على نتاج عمل الاخرى يقود الى ظهور الدولة التي تمثل مصالح الطبقة الحاكمة وتدافع عنها . وهكذا فان الغاء أي اختفاء الطبقات يقود منطقيا الى اختفاء الدولة . ومن المستحيل الكلام عن اختفاء الطبقات بدون الكلام عن اختفاء الدولة . فلطبقات والدولة علاقة متبادلة مباشرة .

لقد اكتشف ماركس وانغلز باكرا ، واثناء تحليل المجتمع الرأسمالي ، التناقض الطبقي الذي يتآكل أحشاء النظام ، التناقض بين البرجوازية ، مالكة وسائل الانتاج ، والبروليتاريا ، مالكة قوة عملها فحسب والتي يتوجب عليها بيعها في السوق كأي سلع أخرى . واكتشفا ايضا انه لا مجال لحل هذا التناقض بواسطة الاصلاحات بل بواسطة الثورة الاجتماعية فقط واكدنا شيئا جديدا بقولهما ان البروليتاريا هي المدعوة للاقيام بالثورة التي ستقلب المجتمع القديم وترسي أسس المجتمع الجديد ، المجتمع الشيوعي .

القياسام بالثورة يعني ، بالنسبة للبروليتاريا ، الاستيلاء على السلطة السياسية واقامة ديكتاتوريتها

الطبقية • وهي تتحول بذلك من طبقة محكومة من قبل
البورجوازية الى طبقة حاكمة • وتقوم البروليتاريا ، ما
ان تباشر ممارسة «سلطاتها» بتأميم وسائل الانتاج
الموجودة بين ايدي البورجوازيين • وهكذا تبدأ الملكية
الخاصة بالاندثار • وتنتقل المصانع ووسائل الانتاج
والنقل العام والتجارة ، الخ • الى الملكية الجماعية
وتصبح ملكية الشعب كله بواسطة الدولة البروليتارية •
تضع هذه الثورة أسس الاختفاء المقبل للطبقات الاجتماعية
مع ان هذه تستمر لفترة قد تطول أو تقصر • وانه لمن
الخطأ الاعتقاد ان الغاء الملكية الخاصة يؤدي بالضرورة
الى الاختفاء المباشر للطبقات الاجتماعية • فهذا النوع
من التفكير هو تفكير ميكانيكي ••

•• فالبورجوازية لا تفقد وضعها الطبقي بمجرد
استيلاء البروليتاريا على السلطة واستلامها وسائل
الانتاج • فهي تستمر في التفكير والعمل وفق عقليتها
القديمة •

البورجوازيون لا يفون عن كونهم بورجوازيين
لانهم فقدوا ملكيتهم ، لذلك ان عقليتهم الطبقة تستمر
وهم يحاولو بكل الوسائل قلب سلطة البروليتاريا حتى
يستعيدوا امتيازاتهم السابقة •

وقد برهنت التجربة التاريخية انه اثناء الفترة

التي تلي استيلاء البروليتاريا على السلطة لا يخفف الصراع الطبقي بل يزداد حدة لان الطبقة الحاكمة القديمة لا تقبل بفقد مصالحها فتتمرد وهي بذلك ترغم الطبقة العاملة على ممارسة ديكتاتوريتها . وتعلم البروليتاريا ان اية اشارة ضعف قد تخدم العدو الطبقي وتسمح له باستعادة السلطة السياسية والتأثر بواسطة القمع الوحشي ويكفي التذكير بالعنف البورجوازي الدموي ضد ابطال كومونة باريس وذلك بعد ان هزمت الكومونة في ١٨٧١ «

ويشير ماركس في كتابه « نقد برنامج غوتا » الى وجود مرحلتين في عملية بناء المجتمع الجديد . وفي غضون المرحلة الاولى ، واسمها الاشتراكية ، وهي التي تأتي مباشرة بعد توحيد البنية الطبقة الخاصة بالمجتمع البورجوازي ، يستمر وجود الطبقات وكذلك بقاها ايدولوجية المجتمع القديم التي تظل ازالتها واجبة .

يدعي الفوضويون انه بالامكان القفز فوق مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا وهم ينسون ان الطبقات تكون موجودة خلال هذه المرحلة ويعتبرون ديكتاتورية البروليتاريا بدون فائدة . ويدعون امكانية قيام مجتمع من غير طبقات او دولة فورا وبعد قلب النظام البورجوازي . ولقد برهن ماركس ان ديكتاتورية البروليتاريا ضرورية في المرحلة الانتقالية لمنع الطبقة

الحاكمة الساقطة من استعادة سيطرتها وخلق الظروف التي تسمح بالانتقال من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية التي هي بناء المجتمع الجديد الذي نعرفه باسم المجتمع الشيوعي .

ما هي الوسائل التي تستخدمها ديكتاتورية البروليتاريا لخلق الظروف التي تسمح بالتطور نحو المرحلة العليا من التقدم الاجتماعي ؟ لقد اشرنا الى واحدة من هذه الوسائل: ازالة الملكية الخاصة بالاستيلاء على املاك البورجوازية مما يمنعها من الولادة مجددا . وهذه الوسيلة هي اهم الوسائل بالطبع . وما ان تصبح وسائل الانتاج بين ايدي المجموع حتى يتحول اعضاء المجتمع الى عمال ، ويتم اجتياز خطوة باتجاه اختفاء الطبقات الاجتماعية .

غير ان هذا لا يكفي . بل يجب تطوير القوى المنتجة حتى الحد الاقصى وزيادة الانتاجية والانتاج . فهذا هو السبيل الوحيد لسد الضرورات الاجتماعية واقامة الشيوعية . كما ان التطور الاقتصادي سيسمح بالغاء الفروقات الموجودة بين المدينة والريف ، بين العمل اليدوي والعمل الذهني .

كما ان العمل على الصعيد الايديولوجي شديد الاهمية ايضا .

بالإضافة الى الطبقات الأساسية - البورجوازية والبروليتاريا- يضم المجتمع الرأسمالي طبقات اجتماعية أخرى مثل البورجوازية الصغيرة والفلاحين ، الخ الا ان الايديولوجية المهيمنة على هذا المجتمع تبقى الايديولوجية البورجوازية ، فالبورجوازية تستخدم كل الوسائل التي تملكها لفرض ايديولوجيتها وتصل في بعض الاحيان الى تشويه ايديولوجية الطبقة العاملة نفسها . وقد توصلت النزعتان الاقتصادية والاجتماعية الى التسرب الى الحركة العمالية وازعاج مواقفها الطبقيّة . ولا يكفي اندلاع الثورة الاشتراكية لاختفاء هكذا افكار .

من جهة أخرى ثمة ايديولوجيات أخرى (ليست مهيمنة في الضرورة) تملك بعض التأثير على قطاعات معينة في الشعب وهذه هي مثلا حالة الايديولوجية البورجوازية الصغيرة التي يجب ضربها .

وباختصار يمكن القول ان المجتمع الشيوعي ليس ممكنا الا عند الوصول الى تطور اقتصادي مهم وعند القضاء على بقايا الايديولوجية البورجوازية والبورجوازية الصغيرة الموروثة . وعند ذلك فقط تختفي الطبقات ومعها الدولة .

هذا الاختفاء للطبقات الاجتماعية والدولة لن يحصل طبعاً بطريقة فجائية أو عنيفة . بل على العكس ، فان

الطبقات والتناقضات الموجودة بينها ستختفي تدريجيا وكذلك الدولة .

مع اختفاء الطبقات الاجتماعية ستختفي تناقضاتها الذي تشكل حسب ماركس وانغلس محرك التطور الاجتماعي في الانظمة المؤسسة على الاستغلال . وسيستمر فقط التناقض بين الانسان والطبيعة ويأخذ ابعادا لامتناهية في تنوع اشكاله وحركاته .

فهرس

المحتويات	الصفحة
١ - اوروبا عند كتابة البيان الشيوعي	٧
٢ - النضالات الاولى للبروليتاريا من الطوباوية الى الاشتراكية العلمية	١٥
٣ - البيان الشيوعي وصراع الطبقات	٢٣
٤ - حول الدور التاريخي للطبقة العاملة	٣١
٥ - « البيان الشيوعي » والاممية البروليتارية	٣٩
٦ - الاخلاق البرجوازية والاخلاق البروليتارية	٤٥
٧ - استغلال الرأسمالية للأطفال	٦١
٨ - استغلال الرأسمالية للنساء	٦٧
٩ - مفهوم الحرية في « البيان الشيوعي »	٧٥

<u>المحتويات</u>	<u>الصفحة</u>
١٠- المادية التاريخية	٨٢
الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي	
١١- الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي	٨٩
١٢- الانتاج قاعدة حياة المجتمع	٩٧
١٣- القاعدة الاقتصادية والبناء الفوقي	١٠٣
١٤- ما هي الطبقات الاجتماعية ؟	١١١
١٥- ما هي الدولة ؟	١١٧
١٦- الغاء الطبقات	١٢٣

هَذَا الْكِتَابُ

هذه الدراسة « ش-روح في المادية التاريخية » من اعداد لجنة
التثقيف الجماهيري في الحزب الشيوعي الكوبي ، وهي تحتوي على
شروح لظروف كتاب « البيان الشيوعي » ولموضوعاته الرئيسية
مع استشهادات مستفيضة من عالمنا المعاصر. وهذه الدراسة هي
أول كتاب من سلسلة « في النظرية » من سلاسل دليل المناضل التي
تقدمها دار ابن خلدون بالتدريج للقارئ العربي كمكتبة شعبية
تعليمية كاملة .. هادفة لتقديم خلاصة مبسطة لمختلف فروع المعرفة
بمنهج علمي تقدمي ..

وتشمل هذه السلاسل « دليل المناضل » على الفروع التالية:

- ١ - في النظرية
- ٢ - تجارب اشتراكية
- ٣ - تجارب حزبية
- ٤ - تجارب حركات التحرر الوطني
- ٥ - المكتبة الاقتصادية
- ٦ - المكتبة الأدبية
- ٧ - دراسات عربية